دكتور/ حلمي محمد القاعود

جاهلية صدام.. وزلزال الخليج

دار المعراج للنشر والتوزيع

دكتور حسامي محمد القاعود

جاهلية صدام..
وزلزال الخليج

دار المعراج للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ

صدر الإذن بطبع هذا الكتاب من
المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الإعلام
برقم ٤٤٦٧ وتاريخ ١٤١١/٧/١ هـ

الإهداء :

إلى المجاهدين الأفغان ...

أَجْمَل ورْدَةٍ في حديقةِ الإِسْلاَم عَلَى أَيَّامِنا .

حلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح

حمداً لله وكفى ، وصلاةً وسلاماً على نبيه المصطفى ..

وبعـــد :

فقد أصدرت قبل أسابيع كتاباً حول محنة الخليج والزلزال الذي أصاب الأمة بقيام الرئيس العراقي «صدام حسين» التكريتي بغزو الكويت ، وتجييش جيوشه على حدود المملكة العربية السعودية ، مما استدعى الاستعانة بالقوات الأجنبية للوقوف في وجه المجرم والجريمة .. وفي هذا الكتاب «هتلر الشرق ، وبلطجي العراق ، ولص بغداد» الذي نشرته دار الاعتصام بالقاهرة (١٩٩٠ م).. أعدت نشر تحذيري للأمة العربية من الطاغية البعثي وكنت قد كتبته منذ خمس سنوات مطالباً له بالرحيل ، وترك العراق والعرب والمسلمين ، ليحلوا مشكلاتهم بمنهج الإسلام ، وإيقاف

الحرب المجنونة التي أشعلها ضد إيران ، وورّط فيها العرب والمسلمين ، مما أفقدهم الكثير من الدماء والأموال ، وضيّع عليهم فرصًا كثيرة للبناء والإعمار! نشرتُ ذلك مع ما سطّرته عقب الاجتياح البعثي الجاهلي للكويت ، وألحقتُ به العديد من الموضوعات والبيانات والوثائق التي تكشف جوانب الجريمة والمشاركين فيها... فكان كتابًا متميّزًا يشهدُ لمؤلفه أنه أول من تكلّم عن الطاغية يوم سكت الناس ، وأول من نطق حين خرست الألسنة!! .

وقد بدا لي أنه لابد من وقفة أخرى ـ بالهدوء والمحاورة ـ يحملها الكتاب الذي بين أيدينا لمعالجة قضايا المحنة التي أصابت الأمة نتيجة لجريمة الطاغية البعثي ، والبحث في جذور هذه القضايا وأبعادها على ضوء معطيات الأحداث المتلاحقة التي ترتبت على الجريمة ، وارتبطت بها ، وهو ما فرض على هذه الوقفة أن تُواجِه بالمنطق والدليل بعض الآراء والتوجّهات التي آثرت مهادنة الطاغية البعثي أو الوقوف في صفّه صراحة تحت حجج واهية أو دعاوي باطلة .

وكنت في هذه الوقفة أتحرى منهج الإسلام العظيم الذي لا يعرف النفاق أو المخاتلة أو «إمساك العصا من الوسط» ،

إنه منهج الحق والعدل والإنصاف .. ومن ثمّ كنت مضطرًا للحديث الواضح الذي لا غمغمة فيه ولا مداورة ، مما أعلم أنه سيغضب البعض ، ولكن غضبهم لا يزعجني بقدر ما يزعجني أن أرى مَنْ تعقِدُ الأمة عليهم آمالاً كبارًا يقفون في صف الطاغية ، أو يبرّرون فعلته البشعة ، أو لا يجهرون بكلمة الحق في وجهه الكالح !

إن هذا الكتاب يسعى إلى أن تستفيد الأمة من «الدرس البعثي» الدامي ، وأن تعي بعمق نتيجة الانحراف عن الإسلام تحت دعاوي العلمانية أو التقدمية التي رفعها القوميون والبعثيون والناصريون والماركسيون وغيرهم ، وأن تفهم بحق أن مجاملة الأشرار وخدام الشيطان كارثة فاجعة بكل المقاييس ، إن لم تصب الأمة اليوم ، فسوف تصيبها غدًا ، وياويل الأمة ممّن لا يعرفون الله !!

ثم إنني مدين بإنجاز هذا الكتاب إلى إخوة فضلاء كانوا يحثّونني على الكتابة ومتابعتها بالرغم من كثرة الأعباء والالتزامات .. وقد أتاحت لي مجلة «الدعوة» السعودية مشكورة نشر معظم ما كتبت ـ مسلسلاً أسبوعيًا ـ في اهتمام وتقدير مما حفزني على متابعة الكتابة وإنجاز الكتاب .

ثم أترك القاريء الكريم ليطالع صفحاتٍ متواضعة ، تبتغي وجه الله سبحانه في كل حرْفٍ خُطَّ عليها ، فإن حقَّقتِ الفائدة المرجوّة فالحمد لله أولاً وآخرًا ، وإن عجزت عن تحقيقها فإننا نسأل الله العفو والمغفرة ، والتوفيق في المستقبل ، وهو وحده الهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله وسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين ، ورضي عن أصحابه وأتباعه الذين تأسّوا بنهجه إلى يوم الدين ...

حلمي محمد القاعود

٢١/٥/ ١٤١١ هـ

٨ /١٢/١٩٩٠ م

الطابور الخامس

﴿... فويلٌ لهمْ ممّا كتبَتْ أيديهِمْ وويْلٌ لهَمْ ممّا يكْسِبُون﴾

[سورة البقرة: ٧٩]

لا شك أن للكلمة دورها المؤثر والخطير في صناعة العدل أو الظلم ، وبخاصة في زماننا الذي نعيشه ، ولا أظن أن زلزال الخليج الذي عشنا ونعيش مضاعفاته منذ الثاني من أغسطس ١٩٩٠ ألا صدى لما فعلته «الكلمة» وفعله المتكلّمون ، وقد فتح «صدام حسين» بجريمته ضد الكويت وشعبها ملفّ نفر من المثقفين العرب ، ضربوا بالقيم والأخلاق ، فضلاً عن الدين؛ عرض الحائط ، وأتاحوا بسلوكهم «الثقافي» المشين الفرصة لكل طاغية وكل جلاّد ؛ أن يعصف بكرامة الأمة ، ويزري بشعوبها ويستعبد أبناءها.. وأقول «أتاحوا الفرصة» لأنه وجد فيهم السّند والعون والمساعدة ، بتحسين ما يفعله وتزيينه ، وتفسيره بما يرضيه ويشجّعه على فعل المزيد! .

ولو لم يجد «صدام حسين» التكريتي مثل هذه الأعداد الضخمة من المثقفين وأشباههم الذين يحضرون مؤتمراته ، ويصفقون لعبقريته ، ويمتدحون بطولاته ، ما استطاع وما جرؤ على اقتحام أرض الكويت وتشريد شعبها واغتصاب نسائها ، لأن جزءاً كبيراً من هذه الأعداد مازال قائماً في الساحة يؤيده

صراحة أو ضمناً ، تحت دعاوى الوحدة العربية أو القومية العربية ، أو مواجهة الخطر الأجنبي ، أو عدم السماح بتجويع شعب العراق ، أو يقوم بتمييع الموقف برمّته تحت دعوى البحث عن حلّ عربي ، أو اتهام الضحايا بأنهم يدقّون طبول الحرب المدمّرة والمهلكة ... ولكننا لم نسمع من هذا الفريق استنكاراً أو إدانة للاعتداء الغاشم على شعب عربي ، أصحابه عرب ، ونساؤه من العرب ، وأخلاقه عربية ، وقِيَمُه عربية ، وأهدافه عربية وحدوّية ، عبّرت عن نفسها يوم وقف الكويت مع «العراق الصدّامي» ضد إيران ، وَدَفَع المليارات ، وَسَاعَد بالمعدات والعتاد والغذاء ، وجعل أرضه معبراً وميداناً يتنفّس من خلاله «صدام» في عزّ محنته وانكساره !!

الطابور الخامس من مثقفي هذه الأمّة يحاول الآن أن يبرىء نفسه من تهمة العمالة والتهريج بتسطيح المسألة أو إدخالها إلى دروب بعيدة ، ومتاهات غريبة... ولكن طبيعة المأساة التي نزلت بشعب الكويت ، ثم موقف هؤلاء النفر المثقف منها يجعلنا لا نصدق كلمة واحدة مما يقولون ، لأنه داخل في باب الدّجل والكذب والبهتان... أو دفاع العبد عن سيّده وولّي نعمته ....

يقول «سلامة أحمد سلامة»: لم يكد يمضي أسبوع واحد دون أن تحمل الطائرات العراقية عدّة ألوف من المدعّوين من رجال الأحزاب والإعلاميين والكتّاب والصحفيّين والفنانين بل ورجال الدين لحضور هذا المؤتمر أو ذاك في بغداد ينزلون في الفنادق الفاخرة ويغرقون في العطايا والهدايا ثم يعودون إلى بلادهم فلا يرون شيئاً من مظاهر الطغيان والديكتاتورية والقسوة... بل إن بعضهم عاد ليكتب عن جَنَّة صدّام حسين. (الأهرام ١٩/٨/١٩٩٠) .

وما يقوله الأستاذ «سلامة أحمد سلامة» بالنسبة للمؤتمرات الصّدامية صحيح ، وينسحب على مجالات أخرى فقد كان يحضر هذه المؤتمرات أعداد غفيرة تضم المثقفين الكبار وأشباههم ، وإن كانت الأغلبية الساحقة منهم تنتمي إلى أصحاب الأيديولوجيات المجرمة من الماركسيّين إلى الطائفيّين المتعصّبين مروراً بالقوميين والبعثيّين والناصريّين وأحلاس المقاهي وكان الجميع يعودون سعداء بحارس البوابة الشرقية وبطل القادسية الثانية وبالطبع لم يسمعوا عن مأساة حلبجة المسلمة التي أبيدت بغاز الخردل ، ولم يروْا كيف يركع الوزراء ومن تحتهم للطاغية دون أن ينبسوا ببنت شفة ، ولم يعلموا شيئاً عن محنة شعب فَقَدَ الحرية والعدل والأمل!! .

جهابذة المثقفين التقدّميين ـ والتقدمية لقب لكلّ ناشزٍ عن منهج الله من أصحاب الأيديولوجيّات المجرمة ـ قَدَّموا لنا «صدام حسين التكريتي» بوصفه البطل المنقذ الذي سيحقق الآمال القومية والتقدمية والوحدوية بعد أن سحق «العدوّ» الفارسي ، وعبّروا عن ذلك بمقالاتهم وقصائدهم ودواوينهم وكتبهم الموثّقة [أحدهم حصل على الدكتوراة من فرنسا حول تأصيل فكر صدام ونضاله وبطولته]... وراحوا يزرعون في وجدان الأمة بحكم ما يملكونه من صحف ونوافذ إعلامية فكراً آثماً يجتّذ الاستبداد ويلغي قيم الحرية والشورى ، من خلال الصورة الصدامية التي حققت النصر في القادسية الثانية ، وستحققه في القادسية الثالثة !

الصورة الصدَّامية هي صورة القائد الفرد الذي ليس بجواره أحد.. هو الذي يفكر ، وهو الذي يرسم ، وهو الذي يأمر... وكل من حوله يسمع ويطيع وينفذ ، فيتحقق النصر ، كما جرى في القادسية الثانية ، وكما هو منتظر أن يجري في القادسية الثالثة !

لقد قنّنوا بموقفهم الانتهازي الرخيص نظاماً ديكتاتورياً إرهابياً يلغي حق جموع المواطنين في الحرية والمشاركة وحق التساؤل والاستفهام... ثم طبّقوا ذلك عمليًّا بالسكوت على

جرائم صدّام التى ارتكبها ضد شعبه ووطنه ، ولم يسمع أحد منهم كلمة عن «حقوق الإنسان» في العراق ، وكأن العراق قد صار جنة الله على الأرض ، بينما يتصايحون إذا اعتقل منهم ملحد في بلد آخر ، أو سجن منهم مارق في دولة أخرى !

ولم يكن عجيباً أن يقوم نفر من هؤلاء المثقفين ـ الطابور الخامس ـ بقيادة الآلة الإعلامية لصدام وبخاصة في المهجر الفرنسي والإنجليزي ، حيث أصدر بأموال الشعب العراقي أكبر عدد من المجلات والدوريات يعمل لحساب دولة عربية هناك ، فقام هؤلاء المرتزقة بالإلحاح على الصورة الصدّامية وتزيينها أمام الجمهور بوصفها المنقذ من الضلال .

وكانت ثمة ظاهرة واضحة تربط بين قادة الطابور الخامس في الآلة الإعلامية الصدامية وبخاصة في المهجر وبين صدام ... هذه الظاهرة تتمثّل في أن معظم هؤلاء القادة والصف الثاني منهم من الطائفيّين المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين... وكان طبيعيًّا أن يكون التحالف بينهم وبين صدام مفيداً ، ونافعاً.. فضلاً عن المهمة الارتزاقية التي يحقّقونها. فإنهم يخدمون البعث العراقي ويخدمون طائفيّتهم بما ينشرونه من موضوعات ومقالات تضع الإسلام في صورة كريهة ، والمسلمين في صورة بغيضة...

فلم يتركوا ظاهرة ولا جماعة ولا حادثة تتصل بالإسلام والمسلمين من قريب أو بعيد إلا وصبغوها بالسّواد ، ووشَّحُوها بالقتام ، وفي المقابل يلحّون على ضرورة الحل العلماني أو قُل الحلّ الإلحادي الذي يربط المسلمين بذيل الغرب الصليبي ومدنيّته الشرسة .

هذا التحالف بين هؤلاء المثقفين الطائفيّين وبين صدّام ، تحالفٌ مرحليٌّ بالضرورة لأنه يخدم هدفاً شريراً ألحّت عليه قوى الشرّ منذ زمان بعيد ، وازداد الإلحاح عليه بعد حرب رمضان المجيدة ١٣٩٣ هـ ، حيث بدا لقوى الشرّ العالمية إمكان حدوث التفوق العربي الإسلامي ، وقدرة العرب المسلمين على مواجه أعدائهم وإنزال الهزيمة بهم... وهذا الهدف يتمثل ـ كما عرفت الدنيا ـ في تفتيت المنطقة العربية الإسلامية ، بعد إثارة النزاعات المحلية والعرقية والطائفية... ولا شك أن للطائفيّين مهمتهم (المقدّسة) من خلال التحالف مع زعيم علماني مثل «صدام حسين» التكريتي الذي يتحرك بمنهج بعثي واضح ، لا يخفي عداءه للإسلام والمسلمين ، ويتبع منهجاً ماركسيًا معروفًا في الاستراتيجية والتاكتيك معًا. وصار مفهومًا أنّ الذي جرى في لبنان ، يمكن أن يجري في مناطق أخرى ، ويستطيع الطائفيُّون المتعصّبون على كل حال

أن يخدموا أهدافهم بطريقة أفضل حين تتحرك النزعات الطائفية والعرقية والمحلية ، ويختفي الإسلام من الساحة !

وقد تصوّر بعض حسني النيّة من المثقفين أن زملاءهم التقدميّين الذين يرفعون الراية القومية صادقون ، لا يمكن أن يخونوا أو يعتدوا على إخوانهم في القومية... ولا يمكن أن يستبيحوا أرض شعب شقيق أو أعراض بناته ، ولكنهم للأسف فوجئوا بالقوميّين يستحلّون الاحتلال والعدوان والاغتصاب ، بعد أن اغتالوا الدّين ، وحنّطوه في متاحفهم ومخازنهم ، ولا يسمحون بظهوره إلا عند الضرورة ليمثّلوا على الأمة ، ويستبيحوا وجدانها ، بعد أن استباحوا حرّيتها وعقيدتها وحقوقها !

ونسى حسنو النية من مثقفينا أن من لا إيمان له لا أمان له... والذي يبيع نفسه لمؤتمرات صدام ومجلاته وصحفه ، لا يمكن أن يكون قومياً أو تقدّمياً ، فضلاً عن أن يكون مسلماً يتحرك بنخوة الإسلام ومروءته وأخلاقه وقيمه .

لقد أصيبت أمتنا على مدى أربعين عاماً بطراز لأخلاق من الناس ، فُرِضوا علينا بوصفهم «مثقفين» وقادة للتنوير في زماننا وما قبل زماننا ، ولكن شرف الثقافة كان أبعد ما يكون

عن أفكارهم ومواقفهم .. لقد كانوا لسانًا مبينًا يستخدمه الطغاة في تحليل الحرام وتحريم الحلال .. لقد حللوا الطغيان باسم الثورة ، والديكتاتورية باسم الزعامة الملهمة ، والقمع باسم مكافحة الثورة المضادة ، والإلحاد باسم الاستنارة ، والانحلال باسم التقدمية .. وحرّموا الحرية والعدل والشورى والمشاركة باسم الدفع الثوري !

هذه النوعية من المثقفين أو شهود الزّور استمرت في مواقعها أو بالقرب منها تكذب على الله والناس والأوطان .. وتمرغت في النعيم الصدّامي ، والترف العراقي مكافأة لها على إجرامها ، ووقوفها ضد إرادة الأمة وهويتها .

وقد استطاع صدام أن يكافئ الكثيرين من هذا الطراز المثقف .. أو الطابور الخامس الذي خان وطنه أو أمته .. فقد أغدق عليهم الكثير ، ومنحهم الكثير ، لدرجة أن أحدهم وقد أنشأ له صدام مجلة في «باريس» ، كان يعمل في مكتب مزوّد بدائرة تلفزيونية يرى بها من يدخل مجلته قبل أن يدخل عليه !

لقد تأثرت كثيراً حين قرأت للدكتورة « **سعاد الصباح** » تساؤلاتها التي تقول في بعضها :

- «أين هم المنظرون ، والأيديولوجيون ، والمثاليون ، الذين أمطرونا بآلاف المحاضرات عن الحرية ، والديمقراطية ، والعدالة ، وحقوق الإنسان ؟
- أين هم هؤلاء الذين كانوا يتباكون على مأساة الإنسان في نيكاراجوا ، وبنما ، وجنوب إفريقيا ، وجزر الفوكلاند ، وجزر واق الواق ؟
- أين هم هؤلاء من مذبحة العصر التي تعرضت لها دولة خليجية صغيرة اسمها الكويت في اليوم الثاني من أغسطس (آب) ١٩٩٠ ؟
- أين هؤلاء التقدميون الذين كانوا يضعون فوق مكاتبهم .. صور شي منه ، وتشي غيفارا ، وماوتسي تونغ ، ونلسون مانديلا .. ولا يعرفون عن شهيد كويتي ، اسمه فهد الأحمد ، سقط وهو يردّ الطغاة عن أسوار مدينته ؟.. إلخ».

(الشرق الأوسط ١٩٩٠/٩/٨)

وبالرغم من أن الدكتورة قد أجابت على تساؤلاتها فيما بعد من واقع ما ألهمتها التجربة ، فإنه كان من المأمول أن تكون الدكتورة قد أدركت من قبل أن هؤلاء المرتزقة لا يمكن أن يتخذوا موقفاً مشرّفاً من أجل الثقافة أو الإنسانية .. إنهم

يعملون ـ يا سيدتي ـ نظير أجر .. وأجر صدام مرتفع للغاية !

لقد كنت آمل أن تستيقظ الدكتورة من حلمها بالعراق القومي بطل القادسية ، قبل أن يشطب وطنها من فوق الخارطة في ليلة مظلمة ، وكنت أتمنى أن تفكّر جيدًا قبل أن تتمنى أن تكون نخلة عراقية أو تقايض على خوذة جندي عراقي .. وقبل أن تهجو تاريخ الأمة الإسلامية والرجل الشرقي ، وتسخر من المماليك الذين كانوا أكثر شرفاً ونخوة ومروءة من صدام وجنوده ! (راجع أشعار الدكتورة).

على أية حال ، فقد كانت اليقظة على صوت الجنازير التي تسحق عظام الشعب الكويتي ، هي النهاية المفجعة للأكذوبة الثقافية التي رفعت الراية القومية ، وغيّبت الإسلام ، وحنّطته ، أو دلّست به ، أو جعلته مجرّد تاريخ أو صفحة في تاريخ .

ومرة أخرى: إن من لا إيمان له .. لا أمان له .. والطابور الخامس في دنيا المثقفين لا يملك إيماناً ولا يعرف أخلاقاً .

ومن المفارقات الغريبة أنه في الوقت الذي كانت فيه المطبوعات الثقافية والصحفية العراقية تحرص على نشر صور الزعيم وتشيد به وبعبقريته وبطولاته وأمجاده ، فإن المطبوعات الثقافية الكويتية ، لم تنشر صورة لأمير الكويت أو تشير إليه ،

بل كانت تصدر ـ بالرغم من بعض الملاحظات ـ حافلة بالزاد الثقافي والمعرفة الإنسانية ، ومتوجهة إلى القاريء مباشرة ، دون أن تفرض عليه صورة الأمير أو سيرته ، وقد لاحظ هذه الظاهرة الأستاذ محمد جبريل (المساء ١٩٩٠/٨/٢٦) ، وكانت المطبوعات الثقافية الكويتية تصل إلى الجمهور العريض بأيسر السبل وأرخص الأثمان. [قام الجيش العراقي بإحراق المخازن التي كانت مستودعاً للمطبوعات الثقافية ، وأهمها: عالم الفكر ـ عالم المعرفة ـ الثقافة العالميّة ـ المسرح العالمي ـ مجلة العلوم .. إلخ ، فضلاً عن نهب الجامعة والمدارس ونقل المعامل والمختبرات إلى بغداد] .

ولاشك أن الطابور الخامس الذي نما بصورة بشعة في عهد صدام ، وطبع الصورة العامة للمثقفين العرب بذلك الطابع الانتهازي الرخيص ، قد أثّر على فصيل آخر من الكرام الذين لم يتلوّنوا ، ولم يبيعوا أنفسهم... ومهما قيل عن تهميش المثقفين أو الانقلاب النفطي ، أو ثورة الاتصالات ، **فإن المثقف «النظيف»** لا يتغيّر ، ولا ينافق ، ولا يمالىء الطغاة ، فقد كان هناك من تصدى لصدام وجرائمه العديدة ، وكان هناك من فضح ممارساته وطغيانه ، وكان هناك من استعصى

على التطويع والاحتواء ، وصدّام يعلم ذلك جيدًا ولا ينساه !

ثم إنه ـ للإنصاف ـ ويجب أن نلتمس العذر لفريق من الناس ، جرت عليه الخديعة لقصور فهمه ، أو تعرض لمحاولات خبيثة قام بها «صدام» وأعوانه للإيهام بأنه في طريقه إلى التغيّر والتوبة ، وبخاصة فيما يتعلق بموقفه من الإسلام والتصوّر الإسلامي ..

ويبقى ملف المثقفين العرب مفتوحاً ومطروحاً أمام الجميع ، لأن خطورة الكلمة أشد من خطورة المدفع ، والكيماوي المزدوج أيضاً .. ولعل ما جرى من «صدام» يفتح الباب ليتحرك الكرام ويدفعوا عن حِمَى الثقافة الحقيقية دجل اللئام ومؤامراتهم .. وارتزاقهم كذلك .

* * *

الحلم الكاذب

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

[سورة الإسراء: ٤٣]

لأن المحنة الضارية التي تمرّ بها الأمة الإسلامية في أيامنا سببها «تغييب الإسلام» لصالح ما يسمى **«بالقومية العربية»** أو **«الحلم القومي»** ؛ فإن مراجعة النفس على مستوى الأفراد والحكومات تصير مسألة حتميّة حتى نتقي شرور الزيف والضلال والبهتان ، ونعرف في الوقت نفسه أين موضع الرأس من القدم ، وفي الوقت نفسه نتجاوز المكر والدهاء والكيد وكل ما يخفيه أعداء الإسلام والمسلمين .

إن مراجعة النفس ، ليست لونًا من الشماتة أو نوعًا من جلد الذات ، ولكنها عملية اعتراف بالأخطاء والخطايا حتى لا تتكرر ، وحتى لا نُلْدغ من جحر مرتين... ويحزنني أن تكون هنالك مكابرة في هذا المجال ، ومحاولة لادعاء البطولة بالإصرار على اتخاذ المواقف نفسها لو أعاد التاريخ نفسه ، أو رجعت الأيام للوراء ! فهذه بطولة فارغة ، وثرثرة جوفاء ، وانفعال أحمق... فكثير من الذين صفقوا للرئيس «صدام حسين» التكريتي كانوا يعرفون ماضيه الدموي وحاضره الدموي. ومستقبله الدموي أيضاً... يعرفون أنه حوّل العراق

المسلم الذي يسمي «بلد الرشيد» إلى سجن كبير داخله مفقود والخارج منه مولود... يعلمون أنه أعدم علماء الإسلام ورفاق الثورة وكثيرين من عامة الناس ، ويعلمون أنه أباد الشعب الكردي المسلم في «حلبجة» ومناطق الشمال ، وقام بتشريد الأكراد في أكثر من مكان ، وأرغمهم على الرحيل إلى الجبال والبلاد المجاورة دون ذنب اقترفوه إلا أن يقولوا ربنا الله ، وإلا أن يطالبوا بالحفاظ على آدميتهم وكرامتهم... ثم إن الذين صفقوا للرئيس صدام يعلمون قبل غيرهم أنه ذهب إلى إيران كي يحارب في غير ميدانه ، وأنه شرد مئات الألوف من الأسر العراقية وطردهم إلى الحدود الإيرانية العراقية بحجة أنهم ينتمون إلى الشيعة أو يوالونهم ، ثم شنّ حربه القذرة ليورّط العرب والمسلمين في أطول حرب دامية وبشعة عرفتها الإنسانية في القرن العشرين ، وخرج منها خاسرًا ، ذليلاً ، مُسلّمًا بكل مطالب الطرف الآخر بما فيها التعويضات العينية عن الخسائر التي لحقت بإيران ، مع اعتذار علني ورسمي سيقدمه قريبًا بأنه المعتدي والباديء بالعدوان .

كل هذا وغيره يعرفه الذين صفقوا لصدام وأمطروه بالتأييد له شعرًا ونثرًا بحجة أنه يمثل الحلم القومي ويدافع عن

وجودنا ومستقبل أولادنا وعن تراث الأمة العربية وتاريخها ، فقد ثبت أن هذه الحجة داحضة ، وكاذبة ، ولا أساس لها من الصحة ، لأن الذي يغتال حرية شعبه ، ومواطنيه ، لا يمثل حلمًا قوميًا ولا وطنيًا ، فضلاً عن أن يمثل حلمًا إسلاميًّا... لقد سرق «صدام حسين التكريتي» الحرية والكرامة والشورى والعدل والثروة... وقبل ذلك كله سرق الإسلام وحطم شعب العراق المسلم ...

وإذا كان الأديب ـ وبخاصة الشاعر ـ والذي يعدّ كتلة مشاعر حساسّة ، وانفعالات قلقة ، لا يستشعر ما يعانيه الشعب تحت قهر الطاغية ، ولا يحسّ الدمار الروحي والمعنوي تحت قيادة الفرعون ، فبئس هذا الشاعر ، وبئس هذا الأديب .

إن البرق أو الرعد الذي يتلبس الأديب أو الشاعر كحالة شعورية انفعالية ، إن لم يتجه نحو ضمير الأمة وآمالها وأحلامها وقبل ذلك آلامها وأشجانها ، فإنه يكون حالة من النشاز الذي يمثل صداعاً للأمة ، وعبئًا على وجدانها وشعورها ، بل هو نوع من «التلويث» الروحي والفكري للحضارة والقيم والأخلاق ..

ولا أظن أديباً حقيقياً لم يسمع بما فعله المجرم في «حلبجة المسلمة» يوم استخدم غاز الخردل في أول سابقة من نوعها في التاريخ ، فلم يسجّل التاريخ قديمه وحديثه أن حاكماً استخدم الغازات أو الأسلحة المحرمة ضد شعبه الأعزل في عملية إبادة جماعية وحشية يشيب لهولها الولدان .

ولا أظن أن أي مشروع وحدوي أو حلم قوي ـ كاذب أو صادق ـ يبيح لشاعر أو أديب أن يتغافل عن مثل تلك الجريمة الوحشية ، ويبدأ في الغناء الحرام للمجرم أو الإنشاد الآثم للطاغية ...

إن مراجعة النفس تقتضي نوعًا من الشجاعة في الاعتراف بالخطأ ، ولا تعني بالضرورة المكابرة والإصرار على الخطأ ، وبخاصة إذا كان الذين أسرفوا على أنفسهم من نوعية متميّزة ، يُفترض فيها الوعي والعلم والاتزان ، وأيضاً الانفعال بالإنسان المظلوم والمضطهد والمطارد !

ومع ذلك دعونا نر هل كان العراق البعثي يجسد الحلم القومي ويحارب دفاعًا عن وجودنا ومستقبلنا ؟

الإجابة سلفًا بالنفي ، وليتني أستطيع أن أكتب « لا » بحجم الكويت الأسيرة والمستباحة والمحترقة !

إن الحلم القومي الذي عشنا به منذ نصف قرن تقريبًا كان يتضمن الوحدة العربية ـ بعد أن سقطت الرابطة التي كانت تربط المسلمين رسميًا أو صوريًا وكانت تسمّى الخلافة ـ وكان هذا الحلم الذي ألح عليه الثوريون الانقلابيون من عساكر ذاك الزمان وما بعده ، يعني فيما يعني تحرير الأرض السليبة في فلسطين ، وإعلان الكيان الواحد ذي الحكومة الواحدة والجيش الواحد والأيديولوجية الواحدة لينعم أهله جميعاً بالاستقلال والحرية و... .

فماذا فعل أصحاب الدعاوي القومية لتحقيق الحلم القومي؟

إن الذي فعلوه مشين بكل المقاييس... والذي اقترفوه كان بشعًا في كل الأديان والأخلاق والأعراف... ولننظر نماذج مما جرى على أيديهم (البيضاء !) :

- **كثرت الانقلابات العسكرية الدمويّة التي أطاحت بالكثير من الرءوس والنفوس ، وعصفت بالأمن والاستقرار .**
- **تبديد الثروات والممتلكات في مغامرات فردية وحزبية ، مما أصاب الشعوب العربية بالفقر والتخلف والديون .**
- **الاستقطاب في دائرة الدولتين العظميين ، والانحياز لهذه الدولة أو تلك ، علنًا أو سرًّا ، مما أفقد الشعوب العربية**

استقلالها وحريتها وشخصيتها الاعتبارية ؛ بالرغم من دعاوى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ، والدخول في دائرة ما يسمى بالعالم الثالث .

- إتاحة الفرصة لليهود كي يوسعوا دولتهم ضعف حجمها في عام ١٩٤٨ سبع مرات ، بعد هزيمة عربية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً عام ١٩٦٧ ، مع احتلالهم لمدينة القدس العتيقة ، أولى القبلتين وثالث الحرمين .

- شنّ الحروب وتجريد الجيوش ضد الدول العربية والإسلامية في حروب لا موجب لها ، والأمثلة على ذلك كثيرة ويستطيع من عاش في العقود الأخيرة أن يتذكر ما جرى على الحدود المغربية الجزائرية ، والليبية التشادية ، والليبية المصرية ، واليمنية اليمنية ، والعدنية العمانية ، والعراقية الإيرانية ، والسورية الأردنية ، وغيرها... ثم كانت الطامّة الكبرى في الكويت ، حيث قام العراق «القومي» باحتلال الكويت «القومي» !

- اغتيال حقوق الإنسان العربي المسلم ، ومصادرة حريته في التعبير والمشاركة والاعتقاد ، وإرغامه على التصفيق للزعيم «الأوحد» والرئيس «الملهم» والحزب «القائد» والجبهة

«التقدمية» والتنظيم الذي يضم «تحالف» قوى الشعب العامل !

- مصادرة الإسلام لحساب الإجرام القومي العلماني ، وملاحقة المتدينين بالقتل والاعتقال والتعذيب والنفي والتشريد والتشهير... وكم من علماء أفاضل التفّ على أعناقهم حبل المشنقة أو دفنوا بدون محاكمة أو عُذّبوا بأبشع ألوان التعذيب وانتهكت أعراضهم وحرماتهم ..

وقد لوحظ أن الدساتير «القومية» العلمانية ، قد خلت من أية إشارة تنصّ على الإسلام بوصفه دين الأمة أو هويّتها ، واستبدلت العقائد الوضعية الفاسدة بالعقيدة الإلّهية الصحيحة ، ثم كانت محاربة الدين الإسلامي ـ وأقول الإسلامي لأن السادة القوميّين لا يجرءون على المساس بأية شريعة أخرى حتى لو كانت عبادة البقر ـ في مجال التعليم والتربية والتثقيف والإعلام والصحافة والمؤتمرات والمهرجانات والتنظيمات والمناسبات... [ميشيل عفلق مؤسس البعث كان يُحتفى به أكثر من نبي الإسلام ﷺ ، وكذلك ماركس ولينين وستالين وماوتسي تونج وهوشي منه وجيفارا وكاسترو أكثر من الصحابة وعلماء المسلمين !] .

■ عرف الناس في زمن القوميّين أبشع أساليب الهجاء والسباب عبر أجهزة الإعلام في الدول العربية ، يختلف الحاكم هنا مع الحاكم هناك فتنهمر ألوان الشتائم والبذاءات وأوصاف الخيانة والعمالة ، مما لم تعرفه الأمة في أي عصر من عصورها ..

ولم يتوقف تأثير الموجات الهجائية بالمصالحة بين الحكام ، وإنما امتدّ هذا التأثير إلى الشعوب التي نما لديها شعور الإقليمية وازدهرت فيها روح الشعوبية ، وصار كل خلاف ، ولو طفيف ، ينعكس سلباً على مصالح الناس هنا وهناك .

■ فشلت كل محاولات الوحدة الاندماجية أو الاتحادية ، والتي قام بها القوميّون منذ عام ١٩٥٨م وحتى الآن ، مما جعل جمهور الأمة لا يثق في أية مقولة وحدوية بالرغم من كثرة القول والكتابة عن الوحدة والوحدويين وإنشاء مراكز الأبحاث المتخصصة في هذا الشأن .. فقد رأى الناس أن الذين ينادون بالوحدة هم أشدّ الناس عداء لها وأكثرهم تمزيقًا للعالم العربي ، فما بالك بحزب قومي يرفع راية الوحدة ينقسم إلى جناحين بينهما من العداء والثارات أكثر مما بين العرب واليهود؟ وما بالك بعصر الدعوة

الوحدوية وقد انقطعت فيه العلاقات بين الدول العربية الوحدوّية لفترات طويلة لم تعرف في الأزمنة الماضية؟ وما بالك بزمن وحدوي لا يستطيع فيه الوطن العربي أن يدخل بلدًا وحدويًا إلا كما يدخل الجمل في سمّ الخياط ؟

لقد جعل القوميون الناس يكفرون بالوحدة وسيرتها واسمها ورسمها ، لأنهم رأوا أن القوميين ليسوا أمناء عليها ، ولم يدخلوا إليها من المدخل الصحيح وهو: الإسلام! ومن المؤسف أن التشرذم القومي والتفتت «الوحدوي» انعكس بدوره على الساحة الفلسطينية ، فقد شهدت هذه الساحة صورة مصغرة لما يجري في العالم العربي كله: كل حزب له منظمة ، وكل اتجاه له جماعة ، وكل فكر له فريق ، وأغلبيتهم الساحقة تدور فيما يسمى بالفكر القومي العلماني ، وظلت الحال كذلك حتى جاءت الانتفاضة مؤخرًا تخرج من المساجد وتبدأ عهدًا جديدًا يستعيد للإسلام وجوده وتأثيره في الساحة الفلسطينية .

إن القوميّين تنكّبوا الطريق الصحيح للوحدة والنهضة معًا ، وغاية ما صنعوه أن كرّسوا منهج الطغيان والإرهاب أسلوبًا للحكم [illegible] والإدارة ، وسلبوا المواطن العربي حقه في الحرية

والكرامة والإحساس بآدميته وملكيته للوطن وحقه في التعبير والمشاركة ، لقد تحوّل القوميّون إلى آلة جهنمية تدور في فلك قوى الشر العالمية من خلال الأصنام التي فرضوا على الشعوب عبادتها والركوع لها... بعد أن صادروا الإسلام والإيمان لحساب الإلحاد والعلمانية ، فصار الحزب إلَهًا ، والقومية دينًا .

وقد عبّر عن ذلك صراحة الشاعر البعثي القومي الذي لم يخجل من عشرات الملايين من المسلمين في العالم العربي فضلاً عن المئات من الملايين خارج العالم العربي ، ولم يخجل من ربّه الذي سيصليه نار الجحيم بإذنه تعالى. يقول الشاعر البعثي القومي:

آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له وبالعروبة دينًا ما له ثانِ

فقد جعل البعثي. القومي. حزب البعث إلَهًا له لا يشاركه أحد ـ حتى بالمنطق اللاديني ـ فلا مكان لأحزاب أخرى بجوار البعث أو بالقرب منه... ثم إن العروبة صارت بديلاً عن الإسلام دينًا للبعثي القومي... وبعد ذلك نجد من يحدّثنا عن «القومية» بوصفها حتمية «وحدوّية» ، وطريقًا أوحد للنضال والنهوض !

لم يقتصر الأمر على تأليه «الحزب» وتنصيبه راعيًا للأمة العربية ، ولم يكتف القوم بمصادرة الإسلام ، وإحلال «العروبة» محلّه دينًا جديدًا للعرب ، بل اختزلوا المسألة كلها

في شخص قائد الحزب ، عندما نصبوه إلَهًا للعرب والعروبة ، ولنقرأ ما قاله الشاعر البعثي الذي قيل إن «إلَهه» البعثي قد بعث به إلى ما وراء الشمس حيث لقى إلَهه الحقيقي .. إله الناس جميعًا ، يقول صاحبنا مادحاً صدامه التكريتي:

تبارك وجهك الوضاء فينا كوجه الله ينضح بالجلال !

صار صدام إلَهًا يسبّح له شاعره ، ويشبه وجهه بوجه الله ذي الجلال والإكرام .. أي جعله إلَهًا مع الله !! ﴿تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا﴾ و﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا﴾ !

ماذا دهاكم يا قوم حتى تجعلوا «صدام التكريتي» صاحب السجل الدامي في القتل والاغتيال والدمار إلَهًا آخر مع الله ؟

إنه أمر غير مستغرب ممن جعلوا البعث ربًّا والعروبة دينًا .. وفي الماضي انفلت عيار شاعر قديم ليحصل على مزيد من الدنانير فمدح الخليفة بقوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار!

كان المسكين مدفوعًا بهدف ذاتي محض ، ولكن القوميّين مدفوعين بهدف جماعي فيه من الجريمة مع سبق الإصرار والترصد أكثر مما فيه من الهدف الذاتي وشطحات الخيال الشعري !

لقد بلغ الإسفاف والحمق بمجرمي البعث أن يصدروا مطبوعة تحمل أسماء «إلههم» البعثي «صدام» كما يطبع المسلمون أسماء الله الحسنى، لقد اختار البعثيون القوميون تسعة وتسعين إسماً لصدام منها: القائد، العظيم، التاريخي، المنقذ، الملهم، الفذ، الضرورة، المحنك، المظفر، الأمين، المنصور، المفدى، الشجاع، المفكر، المبدع، المعلم، قرة عين العراقيين، هبة البعث للعراق، هبة السماء في الزمان الصعب، خلاصة عبقرية الأمة، قمة الانسجام بين العبقرية والقيادة، رائد الديمقراطية، رجل الديمقراطية الأول... .

ما رأي الذين كانوا يظنون أن العراق يجسد حلمنا القومي، ويدافع عن وجودنا ومستقبلنا ؟

* * *

الحلم الجميل

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا..﴾

[سورة آل عمران: ٣]

يحاول البعض في غمرة الأحداث الفاجعة التي تمرّ بها الأمة أن يلفّ بعض القضايا والأفكار غلالة في مخادعةً؛ دون أن يسعى إلى الوضوح والمكاشفة في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الوضوح والمكاشفة... وبخاصة بعد أن ابتلينا طوال نصف قرن تقريبًا بألوان متعددة من النفاق السياسي والدَّجَل الفكري والبهتان الإعلامي .

لقد عاشت الأمة على آمال عريضة تحلم بتحقيقها وكان أول هذه الأحلام تحقيق الوحدة العربية بين الحكومات ، ولا أقول الشعوب العربية ، فالشعوب تملك وجدانًا واحدًا فضلاً عن العقيدة الواحدة والهموم والآمال الواحدة... وارتفعت دعاوى القوم بين رافعي الشعارات القومية والرايات الوحدويّة تهدر صباح مساء بالأمة العربية (وليس الإسلامية) الواحدة من المحيط إلى الخليج ، وأمة واحدة ذات رسالة خالدة ....

حلم الوحدة جميل ، ولا يستطيع عربي أن يقول له لا.

فالجميع يحلمون بوطن واحد وحكومة واحدة وقوة واحدة لتحقيق خطوات عظيمة في الحرية والعدل والشورى والرخاء والتنمية.

ولكن كيف يتحقق الحلم الجميل ؟

الحلم الجميل لدى رافعي الشعارات والرايات يقوم على أساس ما يسمى «بالقومية العربية» ، والقومية العربية لديهم تعني مواصفات خاصة ومقاييس معينة لا تمت بصلة إلى المفهوم الحقيقي للقومية العربية، أو ما نسميه بالعروبة... القومية العربية بمفهومهم تعني كل شي إلا الإسلام! تعني اللغة العربية والتاريخ الواحد ووحدة الهموم والآمال والأرض الواحدة والموقع المشترك .

لقد وضعوا الإسلام تزييفًا وتضليلاً عاملاً مساعدًا وليس عنصرًا رئيسًا ، وقد وضع أساطينهم مؤلفات ضخمة وغزيرة في هذا المجال تنفي الإسلام نفياً قاطعاً من التشكيل الحضاري للقومية العربية ، وتلحّ على وجود العنصر الطائفي الذي يمثل أقل من ٣٪ من مجموعة الأمة العربية ، باعتباره (مانعًا) من إعلان الهويّة الإسلامية ومقتضياتها : مجاهرةً بالإسلام ،

باعتماده منهجًا أيديولوجياً ، واتخاذه طريقًا حضاريًّا في معالجة قضايا الحاضر وصنع المستقبل ...

لقد صارت مقاومة الإسلام الذي صنع من الأمة العربية كيانًا حضاريًا وأثّر في الآخرين رأسيًا وأفقيًا ، هدفًا رئيسًا... من أهداف رافعي الشعارت القومية والرايات الوحدوية ، في الوقت الذي تؤكد فيه الجغرافيا والتاريخ معًا ، أن الإسلام هو العنصر الرئيس الذي جعل للقومية العربية وجودًا ، وللوحدة العربية كيانًا... ولكن يبدو أن المغالطة والتدليس والصوت العالي صارت عناصر استراتيجية في الخطاب القومي والمعجم الوحدوي على أيامنا ، فقد برزت على الساحة الفكرية منذ بداية القرن تقريباً مقولات عديدة تؤكد بل تجزم أن الوحدة الإسلامية خرافة مستحيلة ، وأن اللغة العربية هي الفيصل في تحديد الانتماء القومي ، بل ذهب الغلوّ والتطرف ببعضهم إلى حدّ القول بأن الإسلام دين عربي فقط ، وأنه مرتبط بالمنطقة العربية وحدها ، ولم يأت لبقية خلق الله ممّا يخالف نصوصًا صريحة وقاطعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة... مع ملاحظة أن القوم يفهمون الدين فهماً كنسيًّا ـ إن صح التعبير ـ

أي ليست له علاقة بأوجه الحياة المختلفة ، وإنما يرتبط فقط بالمسألة «العباديّة» التي لا تتجاوز جدران المساجد .

يقول الله تعالى:

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

[الحجرات: ١٣]

والآية الكريمة تقيم أساس المفاضلة على التقوى وليس على أساس العنصر ، مما يعني عالمية الإسلام ووحدة المسلمين مع نفي الإطار القومي بمفهومه الضيق والعنصري والتعصّبي .

وفي السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تناولت هذه القضية وأشارت إليها ، مما يجعل التفرقة بين المسلم العربي وغيره أمرًا غير وارد بالمرة ـ كما يحاول أولئك القوميين ـ وقد أوضح الرسول ﷺ في خطبة الوداع هذا الأمر بجلاء حين أكد مفهوم الآية الكريمة السابقة :

« أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى »...

وهذا المفهوم للوحدة الإسلامية في الإطار الإنساني العام هو الذي سار عليه الراشدون من بعد نبيهم ﷺ... وقصة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مشهورة. فقد صاح عمر في وجه عمرو ابن العاص : «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟**».

ولسبب ما كان المجتمع الإسلامي الأول يضم في صفوفه إلى جانب العنصر العربي عناصر أخرى: فارسية ورومية وحبشية ، ولسبب ما أيضاً ، كان البناء الحضاري قويًّا وشامخًا ... كانت الأمة الإسلامية لا تعرف التفرقة العنصرية ، وتصهر الجميع تحت راية واحدة هي راية الإسلام ، مع تحمل العنصر العربي لأعباء والتزامات تفوق أعباء والتزامات العناصر الأخرى بحكم طبيعة موقعه الرسالي والجغرافي معًا .

ويمكن القول إن التفريط في المفهوم الإسلامي ، واستئثار عنصر واحد من العناصر القومية في الدولة الإسلامية بمجال الحركة والنشاط ، كان الطريق المعبّد إلى الهزيمة الحضارية والفساد الاجتماعي والجمود الإبداعي... والأمثلة على ذلك كثيرة وبخاصة في العصر العباسي الثاني .

ولا يمارى أحد في أن الانتصارات العظيمة والمبهرة لأمتنا

كانت دائمًا تحت راية الإسلام الذي أتاح مشاركة العناصر القومية في صنع هذه الانتصارات ، فقد انتصرت الأمة الإسلامية في مواقعها الكبرى (الأندلس ـ عين جالوت ـ حطين ـ القسطنطينية... إلخ) ، حينما صار الإسلام هو القومية ـ إنّ صح التعبير ـ وحينما انضوى تحت لوائه: العربي والبربري والهندي والكردي والتركي... .

وقد أدرك أعداء الإسلام أن تجمع المسلمين في وحدة نوعية ـ أيًا كانت ـ سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ، خطر عليهم وعلى طموحاتهم الشريرة... ومن ثمّ بدأت الحروب الصليبيّة قبل تسعة قرون تقريبًا لتقوم بدورها في تمزيق الأمة الإسلامية عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعرقيًّا وعنصريًّا... ويبدو أن فشل الحروب الصليبية ، عسكريًا على وجه الخصوص ، قد جعل قادتها يدركون مؤخرًا أن التمزيق العنصري والعرقي والشعوبي أقوى فعالية من أية وسيلة أخرى ، وبخاصة بعد فشل هذه الوسائل إلى حدٍّ كبير... ولعل تحطيم الخلافة الإسلامية وإلغائها رسميًّا عام ١٩٢٤ ـ كان الضربة القاضية التي أصابت كبد الإسلام والمسلمين في القرن العشرين الميلادي (الرابع عشر الهجري)... وبالرغم من أن الخلافة في مرحلتها الأخيرة كانت

مجرد لافتة صورية تنضوي تحتها (رسميًا) أغلب الشعوب الإسلامية، فإنها كانت تمثل قلقًا كبيراً لقوى الشرّ العالمية، وهو ما دفع هذه القوى إلى تقديم البديل الذي يحقق أهدافها ويعفيها من المواجهة المباشرة التي تكلفها الكثير ماديًا ومعنويًا، وكان هذا البديل هو «القومية» التي تعتمد على العنصر أو الانتماء الإقليمي، وتطوّر البديل القومي فيما بعد إلى البديل «الوطني» وفي العقدين الأخيرين تطور البديل القومي ـ وياللعار!ـ إلى بديل طائفي [نموذج لبنان ـ نموذج السودان، على سبيل المثال] .

ومهما يكن من أمر، فقد صارت راية القومية ضد الإسلام، وبدلاً من أن تحمل العروبة شرف الرسالة الإسلامية، فإنها صارت عدوًّا لها، وصار القوميّون من أكبر المشهّرين بالشريعة، ومنهجها، وصاروا ـ ياللهول ـ من أنشط البؤر الصديديّة التي تفرز كل ما هو دميم ومقزز في التاريخ الإسلامي والتاريخ العربي جميعًا... وترتب على ذلك أن قامت نظم وأحزاب ترفع راية «القومية»، وتتخذ لذلك وسائل عديدة، أهمها وأشهرها أسلوب الانقلابات الدمويّة التي يرافقها عادة طنين إعلامي مزيف يتحدث عن القومية

والوحدة والتحرير ومحاربة الاستعمار والإمبريالية والرجعية.. إلخ

وفي كل الأحوال ، فقد تجردت القومية من الإسلام ، بل كانت حربًا عليه من خلال ما يسمى بمكافحة «الرجعية»... وتجريد القومية العربية من الإسلام يفتح الباب إلى شرور عديدة ، لأنها – على حد تعبير **عبد الله التل** – سرعان ما تتحول إلى أداة فساد وانحلال وهدم ، لا يفيد منها إلا أعداء الأمة العربية المتربصون بها ، الداعون إلى تجريدها من عناصر بقائها وعوامل قوتها وعزتها [جذور البلاء: ص ٢٦٣] .

وأعتقد أنه من المناسب في هذا المجال الإشارة إلى معنى مصطلح **«الرجعية»** ومقابله مصطلح «التقدمية» اللذين اخترعهما القوميّون العرب للتدليس على الأمة وشعوبها ، والوصول إلى أهدافهم الإجرامية عن طريق الخداع والمراوغة .

الرجعيّة في المفهوم القومي لا تعني النظم الملكية أو التقليدية – كما يسمونها – بقدر ما تعني الإسلام ، أو المنهج الإسلامي... إنهم يثقون جيدًا في عدم قدرتهم على مهاجمة الإسلام مباشرة لأن المسلمين لن يسمحوا لهم بذلك ، ولذلك يلجأون إلى الخداع والتّضليل ، ويتحدثون عن الرجعية

وجعلوها مرادفًا للماضي والتراث والتقليد وكل ما هو موروث... أما التقدّمية – ولها مرادف ظهر في السنوات الأخيرة اسمه الحداثة – فهي الثورة على الماضي والتراث وكل ما هو موروث ، ومفهوم الثورة هنا التدمير والإزاحة لبناء عالم جديد يقوم على فكر جديد وهويّة جديدة ...

وقد تنبه للفارق بين الرجعية والتقدمية – منذ زمان – عالم جليل هو الدكتور **محمد البهي** – يرحمه الله – حين بيّن – في [illegible] صعبة – هذا الفارق من خلال مصطلحي **«أولياء الله»** و**«أولياء الشيطان»** ، حيث صار الأول رديفاً للرجعية ، والثاني رديفاً للتقدمية... وما يعبر عنه القرآن أو دين الله «بأولياء الله» تعبر عنه بعض الاتجاهات السياسية المعاصرة «بالرجعيّين». وما يعبر عنه «بأولياء الشيطان» تعبّر عنه هذه الاتجاهات «بالتقدميين» ، إذ الرجعية في مفهوم هذا البعض من أصحاب الاتجاهات السياسية المعاصرة هي: تبني الدين والخضوع له ، والتمسك بمبادئه في السلوك والاعتقاد والتفكير .

بينما التقدمية هي التخلّص من الدين ومن قيمه العليا ، بالإضافة إلى التخلص من العادات والتقاليد والثقافة الموروثة لأي مجتمع... هي التحلّل من كل المقاييس الأخلاقية ومعايير

المنطق السابقة ، والاندفاع نحو قبول أيديولوجية تأخذ مكان العقيدة وكل ما هو موروث حسب العرف أو التقاليد ، وهي أيديولوجية «الغوغائية» التي تقوم على ما يسمى بالصراع الطبقي وديكتاتورية الطبقة العاملة... » [غيوم تحجب الإسلام: ص ٣٣] .

ويضيف الدكتور البهي في مكان آخر ، واصلاً إلى نتيجة تقول :

« **والرجعية والتقدمية مفهومان جديدان إذن بين مفاهيم السياسة المعاصرة ، حلّا مكان دين الله من جانب ، وعدم الإيمان بالله أو الإلحاد أو تحدي دين الله من جانب آخر** » [السابق: ٣٤] .

والمسألة كما نرى حالة صراع فعلي بين الإسلام والمادية ، سواء ارتدت هذه الحالة لباس القومية بأبعادها العديدة ، أو التقدمية بمفاهيمها المتباينة .

ولكن ينبغي أن نتذكر أن فريقًا غير قليل من العرب المسلمين قد انخدعوا بشعارات القومية والتقدمية ، لأن القوم ألحّوا في غمرة طنينهم الإعلامي وعجيجهم الدعائي ، على عدم

التناقض بين الإسلام والقومية من جهة، وعلى أن الإسلام دين تقدمي من جهة أخرى، وهنا كانت الكارثة التضليلية التي أحدثها دعاة القومية وأنصار التقدمية، فقد كذبوا على الناس حين زعموا عدم وجود تناقض بين الإسلام والقومية بالرغم من أن فلاسفة القومية، قد جعلوا الإسلام في مؤلفاتهم عاملاً مساعدًا من عوامل نهوض القومية العربية ـ كما سبقت الإشارة ـ بل إنهم جرّدوا القومية من الإسلام تماماً، وأفسحوا المجال أمام بدائل أشدّ بشاعة ونكراً في حين يزول التناقض بين الإسلام والقومية، حين تقوم القومية على أساس الإسلام وتصوّراته وتجعل من نفسها خادمًا له بحكم موقعها الرسالي والجغرافي.

كذلك فإن تقدّمية الإسلام من خلال مدلول لفظة «تقدم» أو «تقدمية» يخدع كثيرين، لأن الناس جميعاً يحبون التقدم ويكرهون التخلف أو التأخر، ومن هنا عزف المخادعون على وتر «تقدمية الإسلام» واثقين أن الأغلبية لا تدرك المفهوم الحقيقي للتقدمية، وهو رفض الدين والمواريث الحضارية الأصيلة .

ويمكن القول، إن عديدًا من الكتاب والمثقفين قد انخدعوا بالفكرة «القومية» على أساس أنها طريق وحدة العرب وقوتهم

وعزتهم ، لدرجة أن البعض منهم وله مكانة كبيرة في مجال تخصصه ، تصوّر في غمرة الحماس أن القومية العربية ينبغي أن تحكم علاقات العرب ببعضهم ، مع تنحية «الدين» عن طريقها ، لأن الدين في نظره يعني «ما بعد الحياة الدنيا» ولا شأن له بالدنيا وواقعها !!

وقد كان غريبًا مثلاً أن يقع رجل مثل الدكتور «**أحمد زكي**» ، والذي كان يسمى عالِم الأدباء ، وأديب العلماء، في مثل هذا المأزق ، فقد قال في افتتاحية العدد الأول من مجلة «**العربي**» الكويتية والتي رأس تحريرها لفترة طويلة :

« ... والعربي لا تصل معنى العروبة بدين ، فكل الناس عباد الله ، وكلٌّ سالكٌ إليه سبيلاً ، والسبل اختلفت والغاية واحدة ، والحيّ يسعى لتأمين الحياة ، وبالدين هو يسعى لتأمين ما بعد الحياة ، والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية دلّت على أن الدين ـ هو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة ـ ذهب بأمن الحياة ذاتها ، فلم يبق عاقِلٌ مفكر يستمسك بحرية الفكر التي هي هبة الله ، إلا يقول اليوم دعوا الناس تسلك إلى الله أي طريق تشاء ، وحتى غير السالك عليه

...ه تبعة أنه لا يسلك لا على الناس... » [العربي ـ العدد الأول ـ ديسمبر ١٩٥٨] .

وواضح أن الرجل ينظر إلى الدين نظرة كنسيّة يدعم بها ...مه القومي... فالإسلام دين الحياة والآخرة ، والإسلام لا يُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وهو يؤمّن الدنيا والآخرة معًا ، لأنه سلوك يترجم عن عقيدة ، فإذا كان يريد أن ينفي شبهة التعصّب الديني عن «العربي» فلن يكون ذلك «بالعروبة» وحدها كما يفهمها لأن العروبة الحقة قد صنعها الإسلام ، والإسلام غير متعصّب ولا يعرف العصبيّة... وإذا مارس بعض المسلمين لونًا من التعصّب فهو محسوب عليهم لا على الإسلام .

إن سكان الكويت مسلمون ١٠٠٪ ولا يوجد بها مسيحي أويهودي أو مجوسي واحد ، اللهم إلا من كان ضيفًا عليها من العاملين أو الزائرين ، فهل يستدعي نفي التعصب عن مجلة «العربي» والكويت أن نقطع صلة العروبة بالإسلام ؟

لقد انطلت الخديعة على كثيرين ، ومن أجل الوحدة التي «ما يغلبها غلّاب» تراجع الإسلام ـ أو أُرْجِع ـ إلى المقاعد

الخلفية ، ليتقدم الصفوف : ضالّون مضلون ، فاسدون مفسدون ، من عيّنة صدام (١) ، وصدام (٢) ، وصدام (٣) ، ومما لا نعرفه من «الصدّاميّين» الراحلين والحاليّين والقادمين !

***

الارض المحروقة

«وَظُلْمُ ذَوي القُرْبى أشَدُّ مَضَاضَةً

على النَّفْسِ من وقْعِ السِّهامِ المهنَّدِ!»

[شاعر عربي]

[في ١٩٩٠/١٠/٣ ، أعلن متحدث باسم الخارجية العراقية تهنئة العراق للشعب الألماني بتوحيد شطري ألمانيا. وقال إن توحيد ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية يماثل ضم العراق للكويت] أ.هـ .

هذا نص ما أذاعته وكالات الأنباء ليلة إعلان الوحدة الألمانية. وهو يكشف عن طبيعة التفكير الذي يحكم البعث العراقي في نظرته لقضايا الأمة والعالم معاً .

فالبعث الصدامي يؤمن بالوحدة ، ولكن على طريقته الخاصة... طريق النضال الذي يعني الدم والضم والاجتياح ، ويعني أيضاً ، أن تقوم الوحدة بالقوة والإكراه والتسلط... على العكس من الوحدة الألمانية ، والتي جرت بين نظامين مختلفين اقتصادًا وفكرًا وسياسية وعسكرية... وكان لابد كي تكون الوحدة ناجحة أن تجرى عمليات اتفاق وتمهيد (سِلْمي) لتوحيد الوسائل والغايات ، وفقاً لما يرتضيه الشعبان في كلّ من الألمانيتين .. واستغرقت عمليات الاتفاق أو التمهيد فترة معقولة من الوقت جرى فيها تعديل أشياء وتغيير أشياء ،

بحيث جاء إعلان الوحدة ، والجميع مستعدّون لها ، سعداء بها .

اضطر الألمان في الجزء الشرقي إلى إلغاء العقيدة السياسية الشيوعية وإسقاط جهاز المخابرات الإرهابي ، وحلّ الحزب الاشتراكي الحاكم (وكان الحزب الأوحد المسموح به) وإلغاء العُمْلة المتداولة وإحلال المارك الألماني الغربي محلها ، ووقف الناس في طوابير طويلة أمام البنوك لتغيير مدّخراتهم.. ثم أقيم نظام حزبي جديد ، وتمّ انتخاب مجلس نيابي حرّ يعبّر عن أحزاب عديدة وأفكار مختلفة ، وصار الاقتصاد حرًّا ، والسياسة ديمقراطية ، وأصبح المواطن الألماني الشرقي في ظل الوحدة الألمانية يملك حقّ التفكير وإبداء الرأي والمشاركة ، وقول نعم ولا ...

كان من جراء ذلك أن صفّق العالم كله للوحدة الألمانية إعجابًا وتأييدًا وتشجيعًا ، فأين مفهوم الوحدة «الصدامية» من مفهوم الوحدة الألمانية؟ وهل حقًّا يمكن أن تتماثل الوحدة الألمانية مع ضمّ الكويت بالقوة الغاشمة إلى العراق ؟

الواقع يقول إن الوحدة الصدّامية التي يؤمن بها «البعث»

تقوم على الإرهاب والإجرام والإكراه ، وتنبع من مفاهيم وقيم تتعارض تماماً مع ما يؤمن به العرب من المحيط إلى الخليج ، ولذا يقف العالم كله ضدّها ، ويحاربها ، ويعمل أطراف الوحدة أنفسهم على فصم عراها وتمزيقها ، لأنها لا تعبر عن إرادة الناس ولا رغباتهم... وإذا كان التاريخ الإنساني قد شهد أنواعاً من الوحدة قامت بالقوة أو تحت لواء الحروب والمعارك ، كما فعل بسمارك في بروسيا (ألمانيا) وغاريبالدى في (إيطاليا) ، فقد كان العنصر البارز في هذه الوحدة أو تلك هو إرادة الناس التي حبّذت الوحدة ، وإن اختلفت حول من التف حوله من القادة والزعماء .

ثم إن الوحدة التي قاتلت من أجلها الشعوب لم تتم في إطار الغدر والقتل والنهب والاغتصاب وتشريد الشعوب وتحويل أبنائها إلى لاجئين ، فقد كان القادة والزعماء المتصارعون يحرصون على كرامة الناس ويصونون آدميتهم وأموالهم وأعراضهم ، ويعملون على استقرارهم ، أو قل استقطابهم واستمالتهم ليتحقق هدف الوحدة المنشود ، ولذا نجح دعاة الوحدة الحقيقيون ، وحفروا أسماءهم في سجلّ التاريخ بوصفهم من أنصار الشعوب وصنّاع القيم وأعوان الحضارة .

وإذا كان من المقبول مثلاً من وكالة أنباء تعبّر عن نظام إجرامي أن تتحدث عن احتلال الشعوب بوصفه «وحدة» كما فعلت وكالة الأنباء العراقية ، فإن من المؤسف أن يتطوع أحد دهاقنة «القومية العربية» والذي يحمل درجة الدكتوراة عن الفن القصصي في القرآن الكريم ليعلن في مجلة يصدرها صدام بالمهجر ، أن «ضم الكويت» إلى نظام البعث العراقي خطوة وحدوية في الطريق السليم ، ويتجاهل أبعاد الجريمة التي اقترفها الرئيس العراقي حيث صارت الكويت أرضًا محروقة ، بلا شعب ولا سكان ولا حركة ولا نشاط ، إلا صوت الأحذية الثقيلة وقعقعة الجنازير وهدير الدبابات !!

كان دهقان القومية العربية الخائبة من أقرب الأصدقاء إلى نجوم المجتمع الكويتي قبل الغزو ، وكانت تحتفل به صحافتها وإعلامها ومجتمعها المثقف ، وكان يُستَقبل في كثير من المواقع استقبال الأبطال .. ومن شدّة التأثّر به صار له تلاميذ وحواريون يؤمنون بالوحدة والقومية في إطار رومانسي خيالي !! وفي مقابل ذلك كان التصوّر الإسلامي محاصرًا ، ويَلْقَى سخرية مريرة في الصحافة والإعلام واللقاءات الفكرية... وها هو «الدهقان» القومي الوحدوي ، يتنكر

لأصدقائه وتلاميذه ومريديه ، ويؤيد استباحة الكويت وإخلائها من شعبها باسم الوحدة والقومية !

ترى هل يمكن بعد الآن لأمة عاقلة تملك الرشد أن تصدّق ما يتلوه كهنة القومية العربية من دعاوى حول الوحدة والمصير المشترك والمستقبل الواحد ؟

أتصوّر أن الأمة العربية الإسلامية لن تصدّق بعد الآن شيئًا من هذا القبيل ، لأنه ثبت باليقين القاطع أن أنصار الوحدة على الطريقة القومية الصدّامية من أشدّ أعداء الإسلام والمسلمين ، وإن انتسبوا بالاسم والميلاد إلى الأمة الإسلامية والأرومة العربية ...

ولعل من المفارقات التي تكشف تناقضهم «القومي» وعداءهم الحقيقي للوحدة التي تحتّمها أسباب طبيعية ما يعلنونه من تأييد لما يسمى بحركة البوليساريو وحركة ما يسمى بجيش التحرير الشعبي للسودان .

فحركة البوليساريو تسعى للانسلاخ عن دولة المغرب ، منذ تحرير «الساقية الحمراء» ، أو الصحراء المغربية ـ كما كانت تسمى ـ وقد بذلت الحكومة المغربية في سبيل تحريرها من

قبضة الاحتلال جهودًا كبيرة توّجت بالمسيرة الخضراء التي اشترك فيها مئات الألوف من المغاربة الذين زحفوا إلى الساقية الحمراء تعبيرًا عن الشوق لتحريرها واستعادتها إلى حضن الإسلام والاستقلال والوطن الأم .

كان الموقف المفترض للقوميّين العرب أن يؤيدوا عودة الساقية الحمراء إلى المغرب باعتبارهم دعاة وحدة شاملة وقومية واحدة... ولكن المفارقة أنهم أيّدوا انفصال البوليساريو ـ ويلاحظ أن الاسم ينتمي إلى نزعة عرقية تتناقض مع العروبة والإسلام جميعاً ـ وفتحوا صحافتهم وإعلامهم لهذه الحركة وقاموا بمساعدتها معنويًّا وماديًّا ، وسببوا لدولة عربيّة شقيقة جرحًا ينزف بغزارة عسكريًا وبشريًّا واقتصاديًّا... وللأسف لم نسمع صوتًا واحدًا من أصوات كهنة القومية العربية يحبذ وحدة المغرب مع الساقية الحمراء ، أو حتى يؤيد ضمّها بالقوة كما فعل أشاوس العراق مع أرض الكويت !

أما **جيش التحرير الشعبي للسودان** ، والمعروف باسم الحركة الانفصالية في جنوب السودان ، فقد لقى حفاوة من القوميّين العرب لا حدّ لها ، بالرغم من وضوح الجريمة التي ينفذها قائد الحركة والمسمى بالعقيد «جون جارنج ـ قرنق ـ» ، والتي تسعى

إلى فصل جنوب السودان عن شماله ، وتجريد السودان كله من الإسلام ، وفتح المجال أمام عبور الحركات التنصيرية لمحاصرة الإسلام في إفريقيا ، والزحف شمالاً نحو دول إفريقية العربية لمطاردة الإسلام والتمهيد لتنفيذ مخططات إجرامية بهدف التقسيم والشرذمة والتفتيت بعد إثارة النزاعات الطائفية والعرقية والشعوبية ، وإشعالها بطريقة وأخرى !

حركة «قرنق» المجرمة لم تجد ترحيبًا إلا من «القوميّين العرب» الذين يرفعوا راية الوحدة العربية ، وينادون بها ولو كانت على أشلاء الشعوب العربية ودمائها وأعراضها وأموالها وممتلكاتها ...

واستطاع «قرنق» أن يجد له أكثر من صديق «قومي» وأكثر من نصير «قومي» وأكثر من حليف «قومي»... وتمكن بمساعدة «الوحدويّين» العرب أن يستنزف الحكومات السودانية المتعاقبة منذ أعلن عن جريمته حتى اليوم ، وخسر السودان الكثير من الدماء والأموال ، وفي ظل هذه الخسارة صار السودان مرتعًا للبعث الصَدَّامي وغيره ، ومصدر خطر على جيرانه «العرب المسْلمين»! .

أرأيتم كيف يؤيد «القوميون العرب» الانفصال وليس الوحدة ؟

والطريف أو الطبيعي أن يكون معظم رافعي الراية القومية أو قادة المشروع القومي – كما يسمون – من الماركسيين أو الذين يتبعون نهجًا ماركسيًا .. والسؤال هنا : كيف يمكن أن يكون هؤلاء أنصارًا للوحدة العربية في شعوب لا يمكن أن تتنازل عن إسلامها وقيمها الإسلامية مهما كانت الظروف وبلغت المحن ؟

لقد لوحظ أن قادة الحركات الانفصالية في العالم العربي (البوليساريو – قرنق خاصة) ، ينتمون – ظاهريًا على الأقل – إلى الماركسية أو اليسار بصفة عامة. فهل مؤازرتهم من جانب القوميين والوحدويّين العرب ترجع إلى أسباب أيديولوجية أم قومية؟ لست أدري؟ ولكن الذي أستشعره من خلال استقراء الأحداث والمواقف أن القوم في قرارة أنفسهم يهدفون إلى إرغام الناس في الوطن العربي إلى الكفر بالعروبة والإسلام جميعًا !!

فمع تأييدهم للانفصال في المغرب والسودان نجدهم يؤيدون الوحدة في الحبشة وتنجانيقا .. وواضح لكل صاحب عقل أن

تأييد الانفصال ينبع من موقف رافض للإسلام ، وهو الموقف نفسه بالنسبة للحبشة وتنجانيقا .

فقد ضمت الحبشة قسرًا وكُرْهًا إقليم «إريتريا» العربية المسلمة في عهد إمبراطورها السابق **«هيلاسلاسي»** وخلفائه الماركسيّين من بعده ، إلا أن موقف القوميّين العرب كان مريبًا وعجيبًا ، حيث لم يرتفع صوتهم من أجل استقلال إريتريا العربية المسلمة أبدًا ، بل اعتبروها جزءًا من دولة إفريقية مستقلة هي «إثيوبيا» وزعموا – لا فضّ فوهم – بأن ميثاق منظمة الدول الإفريقية ينص على صيانة حدود الدول الإفريقية الحالية كما هي... وتسألهم ألا ينطبق ذلك على المغرب والسودان ، فيلوذون بالصمت غير الجميل !

وفي عهد **«جوليوس نيريري»** الرئيس السابق لتنجانيقا ، جرت أبشع مجزرة للعرب المسلمين في سلطنة «زنجبار» ، وقُتل سلطانها العربي المسلم ، وضُمّت السلطنة قسرًا وكرهًا إلى تنجانيقا لتشكل «وحدة» إجبارية تحت زعامة الصليبي المتعصب «جوليوس نيريري» الذي يرفع راية اليسار ويخدم الفاتيكان في آن واحد... يومها بارك الإعلام «القومي» العربي «الوحدوي» وحدة تنجانيقا وزنجبار ، ولم يذرف هذا الإعلام

دمعة واحدة على عرب زنجبار المسلمين الذين اغتالهم «نيريري» الصليبي ، ثم سرق جنوده إسلام الشعب الزنجباري ولغته وثروته ، وحريته قبل كل شيء !!

إن أحدًا لا يعرف بالضبط ما هي مقاييس الوحدة في عرف السادة القوميين العرب ، وهل من الضروري أن تتحقق الوحدة العربية بمدافع الدبابات وفي ظلال المدرعات؟ أم إن هناك وسائل أخرى يمكن أن تتحقق بها الوحدة العربية ؟

لقد خذلنا القوميون العرب نظريًّا وتطبيقيًّا... فهم لم يتفقوا نظريًا على طبيعة الوحدة ، لأنهم أحياناً يؤيدون الانفصال العربي ، وأحياناً أخرى يؤيدون «الضم» الإفريقي ، ولكنهم في كل الأحوال يؤمنون «بالضم» الصدامي للأرض والأطلال ، وانفصال الشعب عن الأرض والأطلال (!) كما أفتى بذلك كبير «الدهاقنة» القوميّين مؤخرًا ، في جريدة «صدَّامية» تصدر في المهجر .

لقد وصل الإيمان بالضم الصدّامي حدًّا جعل بعض القوميّين ، يفقد الغيرة على وطنه ، بينما يغار على السيرة الصدامية ومكتسباتها... وما كنت أظن الأمر يصل إلى هذا الحد عند

بعض الكتاب القوميّين .. فقد راعني في الأسابيع الماضية أن أقرأ لكاتب منهم حملته الشديدة وسخطه الأشدّ على كاتب شاب كان يرصد في بعض ما كتب مظاهر الانحلال الخلقي في العراق نتيجة للحرب العراقية الإيرانية ، فقد انهال لومًا وتقريعًا للكاتب الشاب الذي رآه صاحبنا قد تجاوز الحدود والأعراف .. في الوقت الذي كانت تروّج فيه أجهزة إعلام «قومية» فِرْيَة وقحة حول قيام جمهورية مصر العربية بتوريد ستة آلاف امرأة مصرية للترفيه عن الجنود الأمريكيّين في منطقة الخليج!!! الكاتب القومي التقدمي جدًا ، لم يغضب ولم يهتز ولم يتشنج من أجل سمعة نساء وطنه المظلومات اللاتي شوَّهها «قوميّون تقدميّون مثله» وإنما الذي أثاره ملاحظة الكاتب الشاب عن بلد «صدام» القومي! والغريب أن يتطوع «رجعيّون متخلفّون» ـ وفقاً للمصطلح القومي ـ للدفاع عن نساء مصر وشرفهن ، أما هو فلم تصل إلى مسامعه القصة بعد! هل نقول: يا ناس اختشوا؟ كلّا .. لأن من يؤيد تشريد شعب عربي واغتصاب أرضه لا يعرف الحياء ولا الأخلاق ..

وتظل القضية بعدئذ: قضية إسلام وكفر ..

فالمسلم الحقيقي لا يؤيد وحدة تقوم على أسنة الحراب .

والكافر الحقيقي هو الذي يؤيد العدوان والاحتلال والاغتصاب .

وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القوميّين العرب ليسوا عربًا ولا مسلمين ، بل أعداء للإسلام والمسلمين والعرب ، داخل أوطانهم وخارجها... وما موقفهم من الكويت العربية المسلمة إلا سلسلة لمواقفهم الآثمة من قبل في إريتريا وزنجبار وجنوب السودان والساقية الحمراء وأفغانستان وكشمير وميندناو وقبرص وبلغاريا... إلخ .

* * *

منهج التهويش

«أسَدٌ عليَّ وفي الحروبِ نَعَامةٌ

فَتْخَاءُ تَنْفِرُ من صَفيرِ الصَّافِرِ !!»

[شاعر عربي]

بينما كان الدم الفلسطيني في مذبحة الاثنين الدامي (٨/١٠/١٩٩٠) يملأ ساحة المسجد الأقصى المبارك ، وجثث القتلى تغوص في نهره القاني ، كان فخامة الرئيس المهيب الركن «صدام حسين التكريتي» ، يزعم لثاني مرّة أنه يمتلك صواريخ بعيدة المدى تستطيع تدمير الكيان اليهودي في فلسطين ، والقضاء عليه !!

اليهود لم يأخذوا أبدًا التهديد الصَّدَّامي مأخذ الجد؛ فلم تتوقف بناء المستعمرات ، ولم تتوقف الهجرة اليهودية ، ولم تتوقف المذابح ، لسبب بسيط جدًا ، يتلخص في أن حزب البعث أتاح بفلسفته الانتهازية الرخيصة ، ما لم يتحه لها أحد سواه ، فقد اكتفى طوال تاريخه منذ نشأته رسميًا في عام ١٩٤٧ ، بتهيئة الفرصة لليهود كي يقوموا بغاراتهم العدوانية التي تستهدف التوسع في الأرض ، أو طرد السكان ، أو القضاء على العناصر الفدائية ، أو المراكز العسكرية الاستراتيجية العربية في ضربات خاطفة وصاعقة !

ويعلم اليهود جيدًا أن تهديدات الرئيس «صدام حسين» نوع من «التهويش» الذي اخترعه فيما مضى «جمال عبد الناصر» ، حين كانت تنطلق ألسنته «القومية» بالحديث عن أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، وعن الوصول إلى «تل أبيب» في أقل من أربع وعشرين ساعة ! ثم تمادى في التهويش إلى حد تهوّره وإغلاق خليج العقبة وترحيل قوات الأمم المتحدة في مايو ١٩٦٧ ، مع حشد إعلامي كبير يتمثل في الأغاني الحماسية والأناشيد القومية التي صورت للناس أن القضاء على «إسرائيل» قاب قوسين أو أدنى... وبالطبع لم يُقْضَ على «إسرائيل» ، ولم يصل أحدٌ إلى «تل أبيب» ، ولكن اليهود وصلوا إلى ضفاف القناة والنهر والهضبة وسيطروا على القدس العتيقة .

التهويش الناصري «المعدّل» والذي يصنعه «صدام حسين» لا يختلف عن التهويش الناصرى «الأصلي» ، اللهم إلا في الصياغة ، وإن كانت الأبعاد والأسباب لم تختلف أبدًا ...

ولعل أبرز هذه الأسباب وتلك الأبعاد يتضح فيما يلي :

■ **الإخفاق الذريع في إدارة الدولة داخليًا إدارة صحيحة تقوم على الشورى واحترام حقوق الإنسان وتقدير المنتجين والمبدعين ، وتعبئة الناس وراء غايات حضارية حقيقية.**

فقد آثر منهج «التهويش» اعتماد الديكتاتورية طريقًا وحيدًا وأوحد لتحريك عجلة الدولة ، وتسلح بالإرهاب لقطع رقاب المعارضين وألسنتهم ، وأعلى من شأن الفئات الهامشية في المجتمع [الفنانين ـ لاعبي الكرة ـ سماسرة الفكر ـ كتّاب الزور ـ الإعلاميّين المؤمّمين ..] ، ومع الإعلاء من شأن هذه الفئات؛ أنشأ طبقة معاونة لا تعرف قول «لا» أبدًا ، وكل همّها الإلحاح على توجيهات «السيد الرئيس» وتعليماته... إنها لا تنطق إلا بصوته ، ولا ترى إلا ما يراه .

ولا ينكر أحد أن هذا المنهج في الإدارة قد أفسد العباد ، وخرّب البلاد ، وجعل الدولة هنا وهناك تعتمد على الآخرين في خبزها وطعامها ، بالرغم من وفير الخيرات ، وعظيم الثروات .

● مع الإخفاق في إدارة الدولة داخليًا ، كان هناك إخفاق خارجي تمثّل في الخضوع والتبعية للقوى العظمي ، وهذه التبعية وذلك الخضوع من أبشع عناصر التخلّف السّياسي ، والانحطاط الديبلوماسي... لأن الدولة المحترمة تتعامل مع الآخرين بمنطق يحترم القوانين الدولية والمواثيق العالمية ،

ويجعل من لغة المصالح المتبادلة طريقًا للتعامل مع جميع دول الأرض... أما منهج «التهويش» ، فيجعل من لغة «الأيديولوجية» طريقًا للتبعية والذيلية ، وقد ترتب على ذلك الكثير من الأعباء والديون والمحن السياسية والاقتصادية... ولا ريب أن الاقتصاد المحلي قد تأثر تأثرًا كبيراً مازال الناس يدفعون ثمنه حتى الآن ، وستواصل الأجيال القادمة الدفع غاليًا... وربما داميًا ! .

- افتعال المعارك في غير ميدانها الصحيح؛ لجذب انتباه المواطنين المقهورين البائسين إلى اهتمامات أخرى تفرغ شحنات الغضب والسخط... فقد ذهب منهج «التهويش» الناصري الأصل إلى «اليمن» ليحارب في غير ما هدف ولا طائل ، اللهم إلا مساندة مجموعة من العسكر قاموا بانقلاب عسكري ضد السلطة القائمة... وكانت النتيجة حربًا مدمرة استمرت خمس سنوات تقريبًا ضاع فيها أغلى الشباب ، وأكبر العتاد ، وأفضل السلاح... ثم انهار الاقتصاد لتصبح أغنى دولة عربية إسلامية من أفقر دول الأرض... وتتكفّف الدول الكبرى وغيرها إعفاءها من الديون أو فوائدها أو ثمن خدمتها !

أما «التهويش» الناصري المعدّل ، فقد ذهب إلى إيران ليحارب حربًا نجسة لم يكن هنالك مبرر واحد لدخولها ، وبخاصة أن القوم هنالك كانوا قد فككوا جيوشهم ، وبدءوا إعادة صياغة لمجتمع جديد ، ولم يكونوا على مستوى من القوة يهدّد العراق أو جيشه ، وكانت النتيجة حربًا عوانًا استمرت ـ عمليًا ـ ثماني سنوات ضاع فيها الغالي والنفيس وأزهقت فيها مئات الألوف من الأرواح والنفوس ، وتيتم أطفال ، وترمّلت نساء. وعُوِّق كثيرون ، ثم عاد من شنّ الحرب إلى نقطة الصفر ومن حيث بدأ ليعلن قبوله بكل ما يريده الطرف الآخر ويسلم به تسليمًا كاملاً !

- ثم كان البعد الأساسي في عملية «التهويش» الناصري بصورتيه «الأصلية» والمعدلة ، متمثلاً في محاربة دين الأمة وعقيدتها لحساب ما يسمى «بالقومية العربية» .. لقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا لا يستطيعون بدء خطبهم أو كتاباتهم «بالبسملة» ، فضلاً عن المجاهرة باعتناق التصوّر الإسلامي ، ومن خالف كان مصيره «وراء الشمس» وفقًا للتعبير العامي .

والسؤال هو: هل تستطيع أمّة بلا عقيدة أو دين حتى

لو كان وضعيًا أن تواجه العالم وتبنى حضارتها ، فضلاً عن المشاركة في الحضارة العالمية ؟ .

والإجابة: طبعًا بالنفي .... .

فالأمة العربية طوال تاريخها لم تنتصر إلا بالإسلام ، ولم تبرز نجاحات حضارية إلّا يوم ارتفقت الإسلام أو جعلته هواءها الذي تتنفّسه... أما يوم تخلّت عنه لحساب ما يسمى «بالقومية العربية» تحت ضغط «التهويش» الناصري والبعثي ، فقد تحولت إلى «قصعة الأمم» بل «أضحوكة الدنيا».

يقول الدكتور عبده بدوي: «فالملاحظ أن الأمة العربية قد اكتمل وجودها القومي في ظل الإسلام ، فقد أعطاها الإسلام القدرة على البقاء ومقاومة الانقراض ..» ويضيف مبينًا أن الإسلام ليس كذلك فحسب بل إن «الإسلام بالنسبة للعرب ليس عقيدة فقط ، وإنما هو عدد من جوانب الحياة ، فقد خلق مناخًا علميًا ، وأقنع الناس بالحماسة له ، وأضاف إلى لغتهم مضامين جيدية واشتقاقات جديدة ، كما أضاف إلى عقولهم أبعادًا لا نهاية لها ، وأعطى بدائية «الكتابة» طريقة جديدة في الرسم ، وحوّلها من لغة تنشد أو تكتب بقصور إلى لغة تستوعب الأفكار

والعواطف بدقة ، ثم إنه في الوقت نفسه ملأ عليهم التاريخ ، وفتح لهم العالم ووضع أعينهم - في طموح - على المستقبل - وجعل محياهم ومماتهم لله رب العالمين...»

[حضارتنا بين العراقة والتفتّح: ص ٦١]

ومن الغريب أن يركز «التهويش» الناصري والبعثي على إبادة العنصر الأساسي الذي فتح للعرب العالم وهو «الإسلام»... ولا أدري كيف يستطيع المؤمنون بنظرية «التهويش» القومي أن يواجهوا عدوًّا يعلن في كل مناسبة - حتى في الحفلات الموسيقية - انتماءه إلى عقيدة دينيّة ، ولا يخافت بهذا الإعلان بل يعلنه بوضوح وصراحة ولغة قاطعة وحاسمة ؟

إن ذبح الفلسطينيين في مذبحة الاثنين الدامي على بوابة المسجد الأقصى المبارك تمّت تحت راية الدين اليهودي ، وإعلاء لشأن الدين اليهودي ، وتقديسًا لما يسمى بحائط المبكي ، ويسميه المسلمون حائط البراق !

ولم يكن غريباً أن يكون الانتصار الوحيد الذي حقّقه العرب في القرن العشرين على اليهود كان باسم الإسلام وتحت رايته حينما عبر الجنود المصريون قناة السويس في حرب رمضان ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) ، وكان هتافهم الرائع

«الله أكبر» تتويجًا لجهد عملي وعلمي استغرق سبع سنوات ، حتى استطاع الجنود المصريون تلقين اليهود أول لطمة وأقوى لطمة عرفوها بعد انتصاراتهم العديدة في ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ..

إن الأسباب والأبعاد التي اعتمد عليها منهج التهويش «الناصري» بصورتيه أو القومي البعثي ، والتي مازالت قائمة لا يمكن أن تقود إلى مواجهة مع اليهود في فلسطين المحتلة لأسباب كثيرة ربما كان أهمها :

- الخلل الأيديولوجي الذي يمثّله «حزب البعث» ، حيث يعتمد في سلوكه الفكري والتطبيقي على التلفيق الذي يغازل كل الأفكار والنظريات والعقائد ، ولكنه يعادي عمليًّا التصوّر الإسلامي ، حتى وإن بدا للبعض أحيانًا أنه يرفع شعارات إسلامية ، ويستخدم المعجم الإسلامي في خطابه... إنه حزب انتهازي يؤمن بالميكافيللية طريقًا لتحقيق أهدافه وغاياته ، وكلها تصبّ في مستنقع واحد ، هو السيطرة على العالم العربي ، وتجريده من هويته الإسلامية الفعّالة (فهو قادر على خداع الناس ، وتحويل الإسلام إلى مجرد طقوس وإجراءات شكلية وكلامية ،

أما الإسلام الفعال: عقيدة وشريعة ، دنيا وآخرة ، علمًا وعملاً فهذا من رابع المستحيلات .

ولا أدل على صدق ما نقول أن حزب البعث وقد وصل إلى السلطة رسميًّا منذ ما يزيد على ربع قرن لم يحارب اليهود يومًا ما ، ولم يرفع سلاحاً في وجههم .. ولو أن هذا الحزب بذل مع اليهود ربع ما بذله من رجال وسلاح وأموال في حربه مع إيران أو مع الأكراد ، لكانت فلسطين الآن عربية مسلمة ، ولتغيرت الأحوال ، وما كان العراق مدينًا بعشرات المليارات من الدولارات !

- تمثل العلاقة الخفية بين «البعث» واليهود ، عنصرًا مهمًّا في تفسير عدم المواجهة مع اليهود حتى اليوم. لقد ذكر «حردان التكريتي» صديق الرئيس «صدام» في مذكراته التي نشرت مؤخرًا بعنوان «كنا عصابة من اللصوص والقتلة خلف ميليشيات صدام للإعدام ، القاهرة ، ١٩٩٠ » قصة المعاهدة التي وقّعت بين البعث واليهود كي لا يعتدي أحدهما على الآخر ، وفي مقابل التعهّد اليهودي بعدم الاعتداء ، سمح البعث بتهجير اليهود العراقيين إلى فلسطين المحتلة (راجع صفحات: ٥٦ ، ٥٧) .

وواضح أن اليهود لم يحترموا هذا التعهّد عندما هاجم

«مناحم بيجين» المفاعل النووي العراقي «تموز» ، ولم يردّ عليه «صدام» حتى الآن ، وكانت لديه الفرصة مناسبة في أكثر من موقف ، آخرها مذبحة الاثنين الدامي في القدس العتيقة.

وقد أكد الرئيس «حسنى مبارك» وعلى الملأ في خطبه ولصحيفة الفيجارو الفرنسية في حديثه ؛ أن «صدام» على اتصال مستمر باليهود وقد اشترى منهم السلاح والعتاد ، وأجرى معهم محادثات عن طريق وسطاء أجانب !

ثم إن الصحافة العربية والعالمية قد نشرت بعد الغزو العراقي كلامًا كثيرًا عن علاقة اليهود ـ الذين يرفعون راية اليسار غالبًا ـ بصدام وحزب البعث ، وقالت بعض الصحف إن الذي دفعه إلى حربه مع إيران ثم احتلال الكويت كان مشورة يهودية أوحت إليه أن في حربه إعلانًا لزعامته الكاملة على العرب ، وبخاصة بعد مقاطعة مصر عام ١٩٧٩ ، وفي احتلاله حلًّا لمشكلاته الاقتصادية وتأكيد لزعامته ! (الصحف العربية الصادرة في نوفمبر ١٩٩٠ مثلاً حافلة بالكثير عن علاقة صدام والبعث باليهود !) .

● لوحظ أن عنصر «التهويش» يرتبط بحالة نفسية ، تدفع صاحبها إلى شدّ الشارع العربي وراءه من خلال تصريحاته

المتطرفة ضد اليهود ، وقد فعلها «صدام» حين صرح بأن لديه صواريخ قادرة على إحراق نصف «إسرائيل» ، فتعلقت به الأبصار والأسماع وظن البسطاء أن «صلاح الدين الأيوبي» قد بعث حيًّا في صورة «الزعيم الركن المهيب» ، ولكن الشارع العربي فجع حين رأى الصواريخ والدبابات والطائرات تتجه نحو الكويت ولا تتجه نحو «القدس»... وهو ما يعنى أن تلك النوعية من الزعامة تعمل وفقًا لمخطط غامض ، لا يضع في مضمونة «تحرير فلسطين» إطلاقًا... بل إن هذا المخطط الغامض يعطي لليهود فرصة استثمار الموقف وقطف الثمرة. لقد وزعت إسرائيل الأقنعة الواقية على سكانها اليهود بحجة أنها سوف تتعرض لهجوم كيماوي عراقي فهيأت الأذهان والنفوس داخلها وخارجها لتقبّل أي عمل أو نشاط ستقوم به ، وهو ما ستكشف عنه الأيام مستقبلاً... وبالطبع لن يكون هذا النشاط أو ذلك العمل سارًّا أو مفرحًا للقلب !

أرأيتم تهويش «صدام» وأنّه لن يحارب اليهود ولن يحرر القدس ولن يثأر للمسجد الأقصى ؟

* * *

الغواية المرحلية

﴿ومن قتل نَفْسًا بغير نَفْسٍ او فسادٍ في الأرض فكأنّما قَتَلَ النَّاسَ جميعًا ... ومن أحْيَاها فكأنما أحْيا النَّاسَ جَمِيعا﴾

[سورة المائدة: ٣٢]

من بين ما تفرضه عمليات المراجعة الشاملة لواقعنا ، عقب الهزيمة البعثية ، موقف الحركة الإسلامية ، ومازلت أتصوّر أن مراجعة الحركة الإسلامية من داخلها أفضل كثيرًا من اسهادات أعدائها ، وأومن أن تصويب مسار الصحوة بوساطة بنيها أكرم من التشهير بها على يد خصومها ، وأعتقد أن الزعم بأن كل شيء في مجال العمل الإسلامي قد بلغ الكمال ، وأن رموز هذا العمل فوق الخطأ والغفلة زعم غير صحيح جملة وتفصيلاً... فالحركة الإسلامية وشبابها ورموزها بشر يجري عليهم ما يجري على بقية خلق الله من خطإٍ وصوابٍ ، وغفلةٍ ووعْيٍ ، بل وانحرافٍ واستقامة .

ومن المؤكد أن هناك جوانب قصور عديدة اكتنفت الصحوة الإسلامية منذ بدايتها التقريبيّة عقب الهزيمة السوداء في يونيو عام ١٩٦٧. لقد كانت الصحوة الإسلامية من أنبل الظواهر الإنسانية التي عرفها العالم في القرن العشرين الميلادي (نهايات القرن الرابع عشر الهجري). بحكم ما قدمته مع الناس بمنطق الحق والعدل والإنصاف... وكانت الصورة

– للأسف – مزعجة لقوى الشر العالمية والمحلية ، فتضافرت في اتفاق غير مكتوب لتشويه صورتها والتحريض عليها ، والعمل على اختراقها وشرذمتها وتمزيقها ، وبدت ملامح هذا التشويه عديدة ومؤلمة ، ويمكن أن نشير إليها خطفًا في النقاط التالية :

- عدم الإيمان بالاختلاف حول الفروع والمستجدات ، واحتكار الصواب لدى فريق دون فريق ، مما جعل التسامح «عملة صعبة» والحوار درّة نادرة !
- الاهتمام بالناحية السياسية التاكتيكية أكثر من الاهتمام ببناء الإنسان المسلم تربويًا بما يعدّه لمواجهة القرن الواحد والعشرين ومقتضياته الحضارية .
- انحراف بعض الأطراف نحو المواجهة الدموية مع بعض الأنظمة ، مما جعل القوى الشريرة تلح في خطابها على «دموية الإسلام» و«إرهاب الإسلاميّين» و«إجرام المسلمين»!! .
- اختراق الساحة الإسلامية من جانب بعض الفئات الجاهلة أو ذات الهوى ، بل وصل الأمر إلى حد القول بأن فريقًا من الشيوعيين استطاع الوصول إلى قيادة بعض الفصائل

الإسلامية وصبّها في القالب الماركسي ! .

ولأننا لسنا في مجال الرصد الكامل لأوجه القصور في الحركة الإسلامية ، فإننا نؤكد أن انتقادها ليس خَلْقًا لمعارك معها ، أو تقليلاً من شأنها ، ولكنه محاولة مخلصة لترشيدها ، وتخليصها مما يعوق مسيرتها ، أو يبدّد طاقاتها ، أو يعرّضها للتصفية على يد خصومها ، وما أكثرهم! .

ويعنينا في هذه المناسبة أن نشير إلى الموقف السلبي الذي يتخذه بعض الدعاة من قضايا الأمة ، أو أولئك الذين يتطوعون بإدانة الحركة الإسلامية من داخلها إدانة شاملة ، أو هؤلاء الذين يلوثون بمواقفهم صورة الإسلام والمسلمين جميعًا .

في إحدى الندوات العلمية قُدّمت ورقة عمل من داعية معروف ، ومشهود له بالفضل والكفاءة ، حول منهج الإسلام في الدعوة ، وإذا بالورقة عبارة عن خطبة منبرية تتحدث عن معنى الشهادتين دون أن تشير من قريب أو بعيد إلى المنهج الإسلامي الذي ينبغي أن يسلكه الدعاة... وحين سئل عقب قراءة الورقة عن «المنهج» ، لم يجب الإجابة

المفروضة ، واكتفى بالتعليق حول ما طرحه المعقّبون من أساليب للمنهج وجوانب ، بأن هذه «سياسة» ، وهو لا يريد أن يدخل هذا الباب !!

قد تكون لداعيتنا ظروفه الشخصية التي تفرض عليه أن يكون سلبيًا حتى لا يؤاخذ على كلمة يقولها ، ولكن من قال إن مفهوم «السياسة» هو العمل بالحكم فقط؟ إن مفهوم السياسة بالمعنى الإسلامي هو «تدبير المنزل» كما سيأتي ويتضح ، إن شاء الله وهو مفهوم يمتد في زماننا ليشمل كل شيء ، يتعلق بالإنسان المسلم بدءًا من نقطة «الماء» التي يشربها وكيفية توفيرها إلى مواجهة الجيوش والأعداء .

إن القصور في فهم مدلول «السياسة» هو الذي جعل نفرًا من العاملين في الحركة الإسلامية ينعطف إلى النظر نحو «سدّة الحكم» ، دون أن يدرك أن هذه الدائرة هي آخر ما يفكر فيه الداعية الإسلامي ، لأنها لا تغني أبدًا عن بناء الدائرة الأكبر وهي تربية القاعدة الأساسية من المسلمين وجمهرتهم .

ولا ريب أن «**الأميّة السياسيّة**» التي يعيشها فريق من الإسلاميين ، هي التي دفعت بعضهم مثلاً إلى التطوع لإدانة

الحركة الإسلامية جميعًا ، وعدّ «الدعاة» سبب البلاء في الخصام مع جميع الأطراف من حولهم ، ويفترِضُ هذا الفريق أن يقوم «الدعاة» بمصالحة هذه الأطراف ، حتى تسير الدعوة بلا متاعب ولا مشكلات!! وهذا تخليط وعدم فهم ، لأن افتراض العداء بين الدعاة جميعًا وغيرهم تصوّرٌ خاطيء وغير صحيح لأن الواقع يكذبه ، كذلك فإن افتراض سير الدعوة بلا متاعب ولا مشكلات أمرٌ لم يحدث أبدًا في التاريخ منذ بداية البعثة وحتى اليوم... فما أكثر القوى العلمانية أو اللادينية واليسارية والقوميّة التي تحارب الإسلام بكل ما تملك وتضع العراقيل والصعاب في وجه الدعوة والدعاة .

إن البعض يُخْرِجُ الدعوة من مجالها الطبيعي إلى مجال آخر حين يلحقها بالحركة السياسية المتغيّرة والمرتبطة بأشخاص وأحزاب .. ولكن العلاقة الطبيعية مجالها البناء الرسالي لجموع الأمة ، وتأسيس المواقف على هذا الأساس .

وللأسف فإن بعض الإسلاميين لم يفهم طبيعة المجال الدعوي ، فتورّط في اتخاذ مواقف بعيدة عن البناء الرسالي للأمة ، واندفع في طريق الغواية المرحلية ليتناقض مع الإسلام وموجبات الرسالة ...

إنّ ذلك المحسوب على الحركة الإسلامية الذي يظهر على شاشة التلفزة العراقية مثلاً، ليعلن موقف الإسلام من غزو العراق للكويت؛ فينسى كل شيء إلّا هجاء القوات الأجنبية التي جاءت لتوقف اندفاع صدام نحو ارتكاب المزيد من الجرائم، وتخلّص الكويت الأسيرة من قبضته... يمثّل نمطًا مزعجًا بل مخيفًا في الحركة الإسلامية .

ولست بحاجة إلى ترديد ما سبق قوله حول «الجريمة» وأبعادها، ولا ما جرى على الساحة الكويتية من انتهاكات ومآس... ولكن التعامل بمنطق صاحبنا مع مسألة الغزو يؤكد القصور الذي يعيش به بعض المحسوبين على الحركة الإسلامية في زماننا، وهو ما يعنى أن احتمالات الخسارة للصحوة الإسلامية كبيرة وفادحة... على المستويين العربي والعالمي .

فالانشقاق الذي أصاب الموقف الإسلامي من غزو العراق للكويت أصاب الكثيرين، وبخاصة الشباب بالإحباط واليأس، وجعل الصورة أمام أعينهم قاتمة وسوداء، فقد كانوا يحلمون أن تلتئم كل الفرق والجماعات حول المنهج الواضح والمستقيم، وتقف في وجه الطاغية والطغيان... ولكنهم – ياللهول !– وجدوا من يؤيد الطاغية والطغيان، بل ويقنّن لجرائمه

وممارساته العدوانية ، ويحاول – ياللجراءة – أن يلتمس لمقولاته سندًا من الحديث الشريف والتاريخ الإسلامي !

ثم إن الدنيا كلها قد شهدت على المسلمين وهم ينقسمون إزاء قضية الغزو المجرم ، ورأت أن فريقًا منهم استحلّ الجريمة ، والعبث بحقوق الإنسان ، ونهبَ البلاد والعباد ، ولم تشغلْه إلا قضية القوات الأجنبية .. لقد قدم هذا الفريق الذي يقوده نفر من المحسوبين على الإسلام فرصة حيَّة وعمليَّة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين ، وبخاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان واحتلال أراضي الغير .

لقد تعب المسلمون طوال نصف قرن من الشكوى للأمم المتحدة حول استهانة اليهود بحقوق الإنسان واحتلالهم لفلسطين وغيرها من الأراض العربية الإسلامية .. وها هم المسلمون (ما يفعله فريق منهم ينسحب على جميع الفرقاء في نظر الدنيا كلها) يسوّغون حرمان شعب بأكمله وملايين أخرى من جنسيات مختلفة من «حقوق الإنسان» ، ويجيزون احتلال دولة لدولة (!!) فهل هذا الموقف ينتمي إلى الموقف الرسالي الحقيقي في بناء المجتمع المسلم على أسس من الحق والعدل والإنصاف .. وقبل ذلك كله من «التقوى» التي

تكررت بلفظها أو مشتقاتها أكثر من مائة وعشرين مرّة لتدلّل على أهميتها وخطورتها في بناء المجتمع وفقًا لأسس رسالية راسخة ؟! .

كان المأمول من الذين حملوا على «القوات الأجنبية» ، وانشغلوا بتحليل الحرام وتحريم الحلال أن يفقهوا معنى حرمة الدّم الإسلامي التي تتقدم حرمة الكعبة المشرفة ، وأن يتذكروا أن القرآن الكريم نبّه إلى خطورة قتل المسلم بل الإنسان عامة بغير حق ، **﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ..﴾** [المائدة: ٣٢]

ولا ريب أن القوم يعلمون جيدًا أن فخامة الرئيس المهيب الركن «صدام حسين» التكريتي قد قتل «نفوسًا» عديدة بغير نفس أو فساد في الأرض .. لقد كانت هذه النفوس التي لم يستطع حصرها أحد بعد ، تنام آمنة مطمئنة في مساكنها ، فإذا بها تصحوا على قعقعة جنازير الدبابات وأزيز الطائرات وصوت البنادق والرشاشات تحصدهم بلا ذنب ولا جريرة ، ولا تمييز بين طفل أو شيخ أو امرأة أو شاب ، وما أكثر ما روعت الأسر الكويتية والمصرية وغيرها بقتل أبنائها وأربابها وأفرادها أمام أعينهم ، دون شفقة ، أو رحمة من جنود

البطل «البعثي» صدام ، والذي يضعه بعض الإسلاميين في مرتبة «صلاح الدين الأيوبي» !

إذا كان القتل لنفس واحدة «بغير نفس أو فساد في الأرض» يعدّ قتلاً للناس جميعًا ، فما رأي أخوة الإسلام وزعمائه الذين يؤيدون القاتل في هذه الجريمة الكبرى؟ وإذا كان من المستحيل الآن أن نعرف رأيهم – فهل يمكن أن نستطلع «فقههم» في كيفية التصدي «للمقتلة» التي لم تتوقف حتي اليوم ، وقد تستمر غدًا وبعد غد ؟!

لقد قام جنود صدام باغتصاب العاملات الأجنبيات في مستشفيات الكويت وشركات الطيران .. وبلغ بهم الفجور حدًّا إلى اغتصاب الزوجات أمام أزواجهن ، ثم إنهم – ياللعار – أصرّوا على الطبقية في عملية الاغتصاب: الممرضات للجنود ، والطبيبات للضباط! فهل هذه تباشير النصر على يد «صلاح الدين» البعثي الذي سيحرر القدس من اليهود ؟!

نشرت «الأهرام» بعد الغزو بأسابيع قليلة ، في «بريد الجمعة» قصة الطبيبة المصرية التي اغتصبها «ضباط» صدام أمام زوجها .. لم تكن الوحيدة ، بل كانت واحدة من صف طويل

تعرضن «للنخوة» البعثية! وكنّ يُغْتَصَبْن أمام أزواجهن ، الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا لهن شيئًا .. أحدهم تحرك في مكانه ، فانهمرت الرصاصات الصدامية على صدره فأردته قتيلاً ! قامت الزوجة الطبيبة المغتصبة برحلة العودة مع زوجها عبر الصحراء الحارقة .. ولأن لبن ثدييها قد تسمّم من القهر ، فقد مات رضيعها .. وعادت الأسرة المصرية الجريحة إلى وطنها ، وقد خسرت كل شيء : الشرف ، والطفل ، وعرق السنين .. وصار الزوج لا يكلم زوجته ولا يستطيع أن ينظر في وجهها لأنه لا يستطيع أن يدافع عنها أو يقف في وجه الأوغاد الصداميّين ، والزوجة تشعر بأنها لم تعد صالحة لزوجها بعد أن لوثها الأشاوس المغاوير .. وهناك طفل بقى على قيد الحياة ، ويفتقد حنان والديه اللذين فقدا الإحساس بالحياة !!

وقِس على ذلك قصصاً أخرى وحكايات أخرى تحدث بها المصريون والسودانيون مختزنة في صدورهم ولا يستطيعون البوح بها لبشاعتها ، منذ دهمهم «صلاح الدين البعثي» إلى أن فارقوا أرض الكويت والعراق وخرجوا إلى التيه الحارق حيث لا عشب ولا ظل ولا ماء ، كما يقول الشاعر العراقي الأفّاق إيّاه !

لماذا إذًا يصمّ بعض الإسلاميين آذانهم ويقفلون عيونهم عن البشاعة الصدامية ضد الإنسان المسلم وغير المسلم ؟

هل إهدار الدماء والأعراض والأموال يباح لصدام حسين من أجل مقولته الكاذبة عن إحراق نصف إسرائيل ؟

إن الذين يبيحون ذلك لصدام يلوّثون الإسلام ، ويشوّهون صورته ، ويدمغون المسلمين جميعًا بالوحشية والهمجية والتخلّف... ولا أعتقد أن من يعنيهم أمر الصحوة الإسلامية المعاصرة يوافقون على أن تكون صورة المسلمين أو الإسلام كذلك أو يسعدهم أن يتحدث عنهم العالم كأعداء للأخلاق الرفيعة والقيم العليا .

وإذا كانت التيارات اللادينية أو التي تسمي نفسها «قومية» تستبيح لنفسها أن تهضم حقوق الإنسان ، وأن تنكّل به ، وتمارس معه شتى أنواع التعذيب والمهانة ، فإن الحركة الإسلامية يتحتم أن تترفع فوق امتهان الإنسان وإذلاله ، وبخاصة أن عددًا غير قليل من الإسلاميين قد ذاقوا الويل على أيدي «القوميين» ، وفي ظل «تقدميّتهم» إياها ؟

إن المرء ليأسى حين يرى بعض الزعامات الإسلامية ، وقد ارتضت لنفسها أن تقع في «الفخّ القومي» ، فتنطلي عليها

الدعاية «القومية» ، وتجوز عليها اللعبة «التقدميّة» ، فتتناسى حقوق الإنسان المسلم وغير المسلم الضائعة والمستباحة في الكويت وبسببها ، وتتجاهل أرواح الشهداء والضحايا الذين قُتلوا بغير حق على يد جنود صدام أو «صلاح الدين البعثي» ، ثم لا تذكر كلمة واحدة عن «المظلومين» من أهل الكويت ، أو الذين كانوا يعملون بها ويقيمون ، ومثلهم مئات الألوف من المصريين الذين كانوا يعملون بالعراق ، وفرّوا هاربين بجلودهم وسط الهجير القاسي والرمال الملتهبة والعطش القاتل والجوع الكافر !

لا ريب أن أي مسلم يخشى الله ، ويعرف قلبه الطريق إلى التقوى ، لا يقرّ واحدًا من هؤلاء الإسلاميّين على موقفهم التابع للقوميّين ، ولا صمتهم المريب عن إهدار حقوق الإنسان في الكويت وبسببها... فلا نصّ في القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، أو فقه العبادات والمعاملات يجيز لصدام وجنوده أن يقتلوا نفسًا واحدة فضلاً عن قتل أمّة (وقد قتلوها معنويًا على الأقل) ، وكذلك لا يوجد سند شرعي يبيح لهم أن يمتهنوا البشر ، ويقهروا العباد تحت أي مسمى من المسميات أو سبب من الأسباب... فهل آن للحركة الإسلامية أن تراجع نفسها ، وبصوت عال؟ أرجو ...

***

تدبير المنزل

﴿يأيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقسط. ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألّا تعدِلوا. اعدلوا هو أقربُ للتقوى. واتّقوا الله. إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون﴾

[سورة المائدة: ٨]

لم أصدق نفسي وأنا استمع إلى النائب الإسلامي الأردني وهو يتحدث عبر إذاعة لندن العربية بلغة إنجليزية فصيحة قائلاً : «إنني أقدّم دمي فداء لصدام» ، ومضى يشرح سرّ افتدائه لطاغية العراق بأنه أعاد أمجاد صلاح الدين الأيوبي !

ـ حزنت كثيرًا على الهاوية التي «صَعَد» إليها بعض الإسلاميّين في عالمنا العربي ، وأحزنني أكثر أن ينتسب هؤلاء إلى التيار الذي يُفْتَرضُ فيه النضج والاعتدال والعمق ، وقلت في نفسي لعلها اندفاعة فردية اندفع إليها النائب الإسلامي الذي يفترض فيه الدقة والقدرة على القياس ومعرفة الأبعاد .. ولكنني ـ باللهول ـ فوجئت بأكثر من نائب إسلامي أردني يردّد المعزوفة نفسها ويتيه حبًّا وهيامًا بالمخلوق الذي أذلّ الإسلام والمسلمين كما لم يذلهم أحد من قبل ـ وأقول «من قبل» على الإطلاق وليس في العصر الحديث فقط ـ وجعلهم أضحوكة الدنيا وموضع سخريتها ..

وفي مصر قام بعض المنتسبين « الجدد » إلى الإسلام بحملة غريبة لحساب الطاغية، وحوّلوا فعلته الشنعاء إلى «مداعبة »

خفيفة تثير الابتسام أكثر مما تثير القهر والأسى ، وأكدوا ـ ياللعار ـ «إسلاميّة» صدام؛ وأقرّوا ضمنًا بحقّه في ارتكاب الجريمة النكراء ، وأعلنوا ـ كذبًا وزورًا ـ أن أهلهم من المصريّين في أرض «عبد الله المؤمن» بخير ، وأن مستحقاتهم التي نُهِبَتْ منهم أو جُرِّدوا منها وهم يطردون في أبشع المشاهد دموية وخسّة ونذالة؛ تُصرف لهم من بنك الرافدين ، ثم وجدوا في أنفسهم الجرأة والصفاقة ليعلنوا أنهم قادة الحركة الإسلامية الميامين الذين لم يضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ، «وهُمْ يَحْسَبُون أَنَّهُم يُحْسِنُون صُنْعًا» ! وكانوا من قبل قد أدمنوا معزوفة الشجب للقوات الأجنبية في أرض الحرمين !

وفي شمال أفريقية عاد الزعيم الذي لمع على هدى الماركسية ونداءاتها الدموية ذات يوم من منفاه إلى أرض الوطن ليكون أول هتاف له أمامَ مستقبليه: عاش صدام ـ عاشت القدس ، وكأنّه مكتوب على القدس أن تكون مطيّة لكل أفّاك أفاق ، وطاغية مستبد !

وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد بل امتدّ ليشمل نوعًا غريبًا من الجراءة البشعة في تفسير بعض النصوص الإسلامية ، كأن يقول البعض ـ دون أن يخافت أو يستحي ـ إن معنى

الحديث الشريف الذي يتناول طريقة الأكل مما يلي الإنسان ، هو التهام الكويت العربية المسلمة لأنها تلي العراق الجائع الصديان !

أرأيتم أعجب من هذا يحدث في أمة الإسلام والقرآن ؟!

إنه لخطب جلل ، وأمر جد خطير!! وما أحسب هذه المهازل تصيب أمتنا إلا لخلل أصابها في مقتل ، فشلّ إرادتها ، وحكّم طغاتها ، وأذهب قدرتها على الفعل وردّ الفعل جميعاً .

ولا يظنّن أحد أنّ هذه مجرّد أعراض لتقلبات سياسية طارئة تزول بزوالها ، ولكني أزعم أنها تعبّر عن أزمة حادّة أصابت الحركة الإسلامية المعاصرة في عصبٍ حسَّاس ، فاستفاضت معالمها على جبين الواقع الإسلامي على هيئة نقاط سوداء داكنة تشي بالأزمة ، وتخبر عن طبيعتها .

إن الأزمة تتحدث باختصار وإيجاز عن رسوب العديد من الإسلاميين في علم تدبير المنزل !!

لقد كان تَفَوُّق المسلمين قديمًا في علم «تدبير المنزل» دليلاً

على تحضّرهم وتفوّقهم وتقدّمهم وقوتهم أيضًا .. ويعني هذا العلم فيما يعني : السياسة والحكم والإدارة والإرشاد وتدبير المنزل بمفهومه الدارج ، ومفهومه العريض الذي يشمل الدولة ، وقد تحدث عنه ابن خلدون في المقدمة حيث ذكر أن السياسة المدنية هي «تدبير المنزل» أو المدينة بما يجب لمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ..

وقد عدّ العلماء تدبير المنزل ثالث علمين هما علم الأخلاق وعلم السياسة ، وإن كان البعض الآخر قد جعله متضمنًا لهما شاملاً لكليهما ..

وقد ألحّ عليه كثير من علماء الإسلام بحثًا ودراسة وتعريفًا في كثير من المؤلفات لعل أبرزها وأفضلها ، تدبير المنزل «للطوسى» و«سلوك المالك في تدبير الممالك» لابن الربيع ، وبالإضافة إلى ابن خلدون ، فقد كتب عنه ابن سينا ، والقفطي ، والغزالي ، والشهرزوري ، والآملي ، والإيجي وغيرهم .. المهم أن ما كتبوه كان يعالج بالإضافة إلى قضايا الأخلاق والسياسة مسائل الحصول على المال والمحافظة عليه ، وتنمية ومعاملة العبيد والمرأة والولد .. وقد توخّوا في كل

ما تناولوه ناحية الحصول على أكبر نصيب ممكن من الثروة والسعادة ..

ومع أن جذور هذا العلم تمتد إلى اليونان ، وأن العرب المسلمين قد استفادوا منه وبخاصة «تدبير المنزل» لبريسون ، فإن رؤية ابن خلدون لطبيعة هذا العلم وهي «تدبير المنزل أو المدينة بما يجب **لمقتضى الأخلاق والحكمة** ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه **حفظ النوع وبقاؤه**» ، تبقى أنضج الرؤى وأعمقها ، فقد أدرك الرجل سرّ التقدم والازدهار الذي يبثّه الإسلام في روح الأمة (ما يجب لمقتضى الأخلاق والحكمة) لاستمرار الاطراد في السير إلى الأمام بالإنسان والحضارة (حفظ النوع وبقاؤه) وفقًا (للمنهاج) .

وتدبير المنزل بالمفهوم الإسلامي يعني تهيئة قيم الإسلام ومبادئه في إطار عام واستراتيجي لبناء المجتمع وتنميته وازدهاره ، من خلال العلاقات المتبادلة بين المجتمع وأفراده ، وبين هؤلاء الأفراد والحاكم ، وبين الدولة وبقية العالم .. إن تدبير المنزل هو التطبيق العملي لقيم الإسلام ومبادئه والتحرك بها في خضم الواقع وأمواجه الصاخبة ، دون أن يصيب هذه المبادىء أو تلك القيم ما يقدح في صلاحيتها أو يقلّل من

عطائها الزاخر ، أو يعرضها للمساومة أو المتاجرة .. فإذا حدث لها ذلك فليس لقصور فيها بقدر ما يكون القصور في القائمين عليها: خيانة لها ، أو جهلاً بها ، أو انتهازية رخيصة تحكم سلوكهم ومنهجهم!

ومانراه الآن في عالمنا العربي الإسلامي ، وبخاصة من جانب بعض الإسلاميين يؤكد أن القوم يرسبون في علم تدبير المنزل بجدارة ، فهم حتى الآن لم يدبّروا منزلهم بما يجب لمقتضى الأخلاق والحكمة... ولم يروا أن الأخلاق والحكمة (= بكل ما تحمله الحكمة من معانٍ) من القيم الثابتة والراسخة التي يتحتم احترامها وحمل الجمهور على منهجها لبناء الحضارة والمستقبل... لقد أسقطوا الأخلاق والمعايير التي اصطلح عليها المسلمون وقلبوها ، ليحوّلوا الطاغية إلى ضحيّة ، والمستبد إلى عادل والضحيّة إلى مجرم ، والحاكم الذي قضى طوال عمره في مكافحة الإسلام إلى (عبد الله المؤمن) ، والحزب القومي الذي قام على أنقاض التجمع الإسلامي إلى رمز للوحدة الإسلامية .

انقلبت الأسس والمعايير والقيم ، فاهتزّ البناء ، بل اهتز المنزل الإسلامي كله ، وصار مُعَرَّضًا للزلزال القاصف الذي

صنعه الطاغية أو (عبد الله المؤمن) وفقاً لمعاييرهم !!

لقد أساء القوم إلى الإسلام إساءة بالغة بما قالوه واقترفوه ، ولا أظن مسلمًا حقيقيًّا يتقبل ما قيل وحدث من بعض الإسلاميّين الذين أمل الناس فيهم خيرًا بوصفهم دمًا جديدًا يضخ إلى قلب الإسلام عراقته وتفتّحه ، ويتجاوز قصور الأفق الضيق والفهم المحدود ، والمعرفة المتواضعة .. ولا أكاد أرى بينهم وبين بعض خطباء المساجد الذين مازالوا يدعون للخليفة العثماني بالنصر على الكفار؛ أيّ فارق .. لأن من يُحجم عن معرفة الواقع وفقًا «لمقتضى الأخلاق والحكمة» ، يثبت قصوره وعجزه بل إخفاقه الكامل .

وما رأيناه بعد الزلزال القاصف الذي أصاب أمتنا الإسلامية في صبيحة خميس الغزو كان إدانة واضحة لفريق من الإسلاميين عموا وصموا عن رؤية الحقيقة الساطعة سطوع الشمس ، والواضحة الأبعاد والملامح ، فأخذوا يسوحون في عالم آخر يساعد على ازدهار الجريمة ولا يكافحها ، ويبني بيتًا للطغيان ولا يهدم له جدارًا .. وتصوّروا أنهم بذلك يعيدون زمان صلاح الدين ، أو صلاح الدين نفسه ..

ولو أن هؤلاء الراسبين في علم تدبير المنزل؛ عرفوا أن «القراءة» بكل ما تعنيه القراءة من فهم ، ووعي واستبطان للماضي والحاضر والمستقبل ، أساس هذا العلم ما وقعوا في هذا الخطأ البشع والمخجل أيضًا . لو أنهم قرأوا لعرفوا أن زمان صلاح الدين موجود في زماننا ، بل يكاد يكون صورة طبق الأصل من زماننا: فُرقةٌ ـ تَشرذُمٌ ـ باطنيةٌ (حشاشون) ـ فقرٌ وترفٌ ـ قهرٌ وظلمٌ ـ شعوبٌ مُستعبَدَة وعصاباتٌ مستبدة ـ وطنٌ ضائع وقدسٌ أسيرة ـ غرباءُ ظالمون وأقرباءُ متواطئون .. إلخ ، هذا الزمان الأيوبي قائم بالفعل ، ولكن صلاح الدين نفسه لم يأت بعد ، لأنه حين يأتي ستملأ روحه الزمان والمكان معاً ، وسيكون وَرِعًا تقيًّا ، عابدًا زاهدًا ، فقيهًا عالمًا ، يجعل الجهاد همّه بالليل والنهار ، ويختار من الأعوان الصالحين من يعينه على أداء الواجب ، فيعمل من أجل المعركة بإقامة العدل والشورى ، ويقضي على اللصوص ، والمنافقين ، ويفكر فيما حوله ، ويحسب حساباته وفقًا لأسس ومعايير علمية ، ويحصّن مدنه وبلاده ، ويعدّ جيشه وجنوده ، ويوفّر سلاحه وعتاده ، وينطلق بعدئذ إلى غايته مصحوبًا بتأييد الله .

فهل هناك وجه شبه بين «صدام حسين» التكريتي وبين الناصر لدين الله «صلاح الدين بن أيوب» ؟

لو أن القوم عَقِلُوا «فقه السياسة» بدلاً من «فقه الخطابة» لأدركوا الفارق الرئيس بين صدام التكريتي وصلاح الدين الأيوبي ، ولعرفوا أن الفارق بين الرجلين هو الفارق بين الأرض والسماء .. فشتان بين من يغفل عن مصلحة الأمة ولا يدرك تأثير خطواته الجامحة على مستقبلها وكيانها ، ويعصف بكيان شعبه وكرامته ، وبين من يضع نفسه في خدمة دينه وأمته ، ويجعل ديدنه الأول والأخير تحرير أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ويكتفي بالقليل من الزاد والبسيط من الثياب ويدخر كل شيء للأمة وكرامتها !!

ومن الطريف أن تحمل الأنباء مؤخرًا نبأ انتهاء أحد القصور الفخمة التي بناها «صدام» وتكلفت قرابة المائة وخمسين مليونًا من الدولارات ، بينما لا يستطيع مليونا مِصْرِيّ الحصول على أجورهم المتواضعة التي بذلوا في سبيلها العرق والدموع ، وفَقَدَ بعضهم حياته من أجلها ، وعاد إلى أرض الوطن جُثَّةً مشوهة بلا تقرير طبي !! فهل من «فقه السياسة» أو «تدبير المنزل» الهتاف لصدام المترف ،

في الوقت الذي ترتفع فيه عقيرة بعض الإسلاميين بالحديث عن توزيع الثروة ، ويقصر لسانهم عن الإشارة إلى مظالم الطاغية وبغيه على الناس ؟!

إن الإسلام كلّ لا يتجزأ ، ومبادئه واحدة لا تتغيّر ، ومن العار على بعض الإسلاميين أن ينظروا إلى القضايا بعين واحدة ، ولا يروا إلا جانبًا واحدًا من الصورة ، ويكتفوا بملمح واحد من اللوحة ..

لقد علمنا الإسلام الإنصاف ، والإنصاف أساس مكين من أسس «تدبير المنزل» درءًا للجور ، ومنعًا للظلم. قال تعالى:

﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .. ﴾ [المائدة: ٨]

والآية الكريمة كما نرى تحبّذ العدل والإنصاف في كل الظروف والأحوال ، حتى مع من نكرههم ونبغضهم ونعاديهم ، لأن العدل أساس حضاري لا تقوم بدونه الحضارات والأمم ، ولعل القول المأثور: «العدل أساس الملك» والذي تحوّل إلى لوحات يعلّقها المسلمون على جدرانهم ،

ويزينون بها مجالسهم ويجمّلون بها مكاتبهم ، كان تعبيرًا عن إدراك واع لواحدة من أهم القيم الإسلامية التي لا يتحقق بدونها الاستقرار ولا النمو ولا التقدم .. ولا تدبير المنزل .

إن ما نراه من محاولات بعض الإسلاميين لاعتساف تفسير النصوص ، وفهمها فهمًا خاصًّا يحلّل الحرام ويحرّم الحلال دونما سند من دليل أو حجة لهوٌ نذير خلل خطير يهدد حاضر الأمة ومستقبلها لأنه ضد العدل والإنصاف والحق جميعًا ، ومازلت حتّى الآن لا أصدق ما نقله البعض حول تفسير الحديث الشريف الذي يقول :

[**عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحيفة ، فقال رسول الله ﷺ: «يا غلام سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك» متفق عليه**] .

البعض يفسر هذا الحديث تفسيرًا غريبًا وعجيبًا ، حيث يرى أن ما فعله صدام باحتلال الكويت هو «أكْلٌ» مما يليه ، بوصف الكويت لقمة مجاورة أو تالية ، وقد تناولها صدام الجائع بيمينه!! فهل إلى هذا الدرك من الإسفاف وصل تفسير النصّ الإسلامي وتطويعه لأغراض آنية حقيرة ؟! .

إن هذه الحادثة لو صحّت نسبتها إلى الزعيم الإسلامي الشهير؛ فإنها كما قلت تنبيء عن خلل خطير يهدد حاضر الأمة ومستقبلها، وتكشف عن قصور أخطر في فهم النصّ الإسلامي وتفسيره .. فقد أَلِفْنا أن يكون القصورُ مرتبطًا ببعض المسائل الفقهية التي تتعلق بالطهارة ونحوها .. أما القصور الآن فهو مرتبط بحياة المسلمين: ماضيًا وواقعًا ومستقبلاً .. وهو ما يحتاج إلى تفصيل وتحليل .

***

الشجار الأجوف

«المسلم من سَلِمَ المسلمُون من لسانه ويده»

[حديث شريف]

ما أكثر المتربصين بالصحوة الإسلامية وشبابها ، وما أكثر الحاقدين على عودة الإسلام إلى المسلمين بعد طول غياب أو تغييب ، وما أكثر المؤامرات التي تحوكها قوى الشر هنا وهناك كي يتم تفريغ الإسلام من محتواه ، والصحوة من مضمونها ، حيث لا يبقى إلَّا الإحباط والعجز والاستسلام !!

إذا وضعنا هذا الأمر في الاعتبار أو الحسبان ، فإن كل نقد بل انتقاد يوجه للحركة الإسلامية المعاصرة ينبغي أن يؤخذ بما يستحق من المتابعة والتقويم ، وليس الانفعال والتهييج ، عملاً على تجاوز السلبيات وتدعيم الإيجابيات ، وحرصًا على الصحوة شبابها ، وجهادًا من أجل الإسلام والمنتسبين إليه .

ولقد كشفت جريمة الرئيس «صدام حسين» التكريتي ضد الكويت ؛ خللاً عميقًا في الحركة الإسلامية ، وأبرزت فجوات كبيرة في العمل السياسي ، مما رأيناه ولمسناه في مواقف بعض الجماعات والرموز ، وكان له صداه وتأثيره الذي تجاوز العاملين في مجال الدعوة الإسلامية إلى عامة

المسلمين أنفسهم ، بل إلى العالم كله الذي يرقب ما يجري على الساحة الإسلامية ويرصده ويحلّله من خلال المواقف والأفكار ، والسلوكيات والآراء ..

يكفي أن يكون الشعور العام لدى الناس قد امتلأ كمدًا حين رأى المنهج الإسلامي مجال مساومة بين هذا الفريق أو ذاك ، ورأى التصور الإسلامي محلّ ابتزاز أو مناورة يستخدمه هذا الطرف ليكسب به من وراء الطرف الآخر أو يرغمه على التسليم بإرادته ومطالبه !

يحدث هذا كله بينما الحلال بيّن والحرام بيّن في قضية الاجتياح البعثي الإجرامي لدولة الكويت .. ومع هذا الوضوح الكامل لموقف الإسلام في قضية النزاعات التي تجري بين المسلمين ، فإن القوم يشتجرون حول موقف الإسلام من الاستعانة بالكافر في ردّ العدوان وإخراج المعتدي من البلاد ؟!

ومن الغريب أن القوم لا يحاولون النظر إلى أبعد من جزئيات يسحبهم إلى الاستغراق فيها والدوران من حولها «ذكيٌّ خبيث» ، فلا يرون ما يراد لهذه الأمة على أيدي الأعداء والمتربصين ، وبخاصة «يهود» ! وتلك كارثة الكوارث

التي تنبع من «عدم القراءة» أو «عدم الفهم» لأحوال الدنيا ، والجهل بشئون «تدبير المنزل» كما سبق أن قلت في الفصل السابق .

•

هناك حالتان متشابهتان حدثتا في زمنين متقاربين ، الأولى تتعلق بوفاة «ميشيل عفلق» أمين حزب البعث العربي الاشتراكي ومؤسسه ، والثانية ترتبط بالرئيس العراقي «صدام حسين» نفسه الذي يعدّ الزعيم القطري لحزب البعث في العراق ..

لقد أُعلن صبيحة وفاة «ميشيل عفلق» أنه كان مسلمًا ، ولم يعلق عن إسلامة أيام حياته لأسباب خاصة ، وأنّ وصيّته تضمّنت إعلان إسلامه بعد وفاته حتى تتم الصلاة عليه في أحد المساجد ، ويدفن في مدافن المسلمين ، وقد كان .. فقد شارك المسلمون العراقيون وعلى رأسهم صدام في حمل نعشه وصلوا عليه صلاة الجنازة في أحد مساجد بغداد ، وتم دفنه كما يدفن المسلمون !

وفي عشية احتلال الكويت دعا الرئيس العراقي صدام حسين إلى مؤتمر إسلامي في بغداد حضره مئات من العلماء المسلمين البارزين وتحدث إليه الرئيس حديثًا عذبًا وشجيًا

حول الإسلام وقضاياه ، وأعلن بكل وضوح وحسم أن الإسلام يسبق ما عداه ، وأنه مُقَدّم على غيره ، حتى لو كان البعث وأفكاره وتصوّراته ، وذهب إلى أبعد من ذلك حين أخبر القوم أنه من «حزب الله» !

في الحالتين «إسلام عفلق» ، و«إسلام صدام» تبدو المسألة مثيرة للالتفات والانتباه معاً. فميشيل عفلق بحكم ما يملكه من حضور وهيمنة على البعث والبعثيّين على المستوى القومي ـ وليس القطري فحسب ـ كان يستطيع في حياته أن يعلن على الملأ إسلامه بصوت جهوري لا يخافت ولا يخشي أحدًا .

وصدام حسين بحكم ما يملكه من سلطة وسطوة على العراق والعراقيين ، كان يستطيع قبل ذلك بعشر سنوات على الأقل أن يعلن بكل اللغات وأجهزة الإعلام أن العراق طلّق ما يخالف الإسلام ، وصار رائدًا للعمل الإسلامي في الدول الثورية التي حادّت منهج الله ورسوله ..

ولكن الرجلين «ميشيل وصدام» لم يفعلا وقت أن كان الفعل واجبًا ، ولم يعلنا وقت أن كان الإعلان ضرورة .. فماذا يفهم المسلم الواعي ، وبخاصة ذلك الذي يزعم أحيانًا أنه قائد جماعة إسلامية أو زعيم حركة إسلامية ؟

لا شك أن الإجابة أوضح من أن تقال ، والمعنى أقرب من أي شرح أو تفسير ..

لقد ازدهر المصطلح الإسلامي في الخطاب ـ العراقي الإعلامي فجأة عقب مداهمة الكويت ، وصار من يتابع المعجم اللغوي للإعلام العراقي يوقن أن «العراق» قد صارت حارسة على الإسلام والمسلمين ، وأنها لا يمكن أن تكون تلك الدولة التي تعتدي على دولة شقيقة وتشرّد شعبها وتنهب ممتلكاتها وتغتال كل خير وبراءة في هذا القطر المسلم ، وتجلب المصائب والكوارث للعديد من الأقطار الإسلامية وشعوبها ..

إن أبسط تعريف للمسلم هو : من يسلم الناس منه ومن أذاه كما علّمنا الرسول الحبيب ﷺ : عن عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» متفق عليه. وفي رواية مسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» .

فهل هذا التعريف ينطبق على ما فعله صدام ؟

الإجابة بالنفي المؤكد ، فقد آذى صدام معظم الناس بطريقة وأخرى ، ولكن إيذاءه للمسلمين كان شديدًا وداميًا .. جماعة واحدة فقط هي التي أفلتت من أذاه ، بل استفادت مما فعل وهي «يهود» !

ولذا ، فإن بعض الإسلاميين حين يتغاضون عن البدهيات التي تتعلق بالموقف ، ويتمسكون بأهداب الشجار حول «الحلال والحرام» في الاستعانة بالكفار لردّ العدوان ، فإنهم يخذلون أمّتهم ، وينحرفون عن فقه «تدبير المنزل» ، ويؤكدون أنهم لم يفهموا بعد «فقه السياسة» ولا «فقه العبادات» .

لقد اندفع هؤلاء الأخوة إلى الانزلاق في طريق واحد مع من يسمّون أنفسهم «بالقوميّين العرب» وهؤلاء خليط من الشيوعيين واليساريّين والناصريّين واللادينيين ، وراحوا يقرّرون أن القوات الأجنبية جاءت لتحتل العالم العربي ، وليس للدفاع عن الخليج وشعوبه !

وفي هذا التطابق الذي جمع الإسلامي مع عدّوه في معسكر واحد ، ما يؤكد على قصور الفهم وتلوّث المنهج لدى فريق من الإسلاميّين ، إذ يُفْتَرض أن المسلم ذو موقف مستقل

وواضح وينبع من رؤية الإسلام وحده .. ولكن أن يكون خاضعًا للرؤى والتفسيرات الماديّة التي يعتنقها القوميّون فهذا دليل على الخلل الفكري ـ إن لم يكن العقدي ـ صحيح أننا مطالبون بالحوار مع الآخرين وإجراء «ديالوج» شامل مع الغير ، لنقدم أنفسنا ونكسب القوم إلى صفوفنا .. بيد أن هذا «الديالوج» أو ذلك الحوار لا يبرر أن نتنازل عن تصوّرنا وفهمنا وإرادتنا ..

ثم إن النوايا لو كانت خالصة حقًا ، لدفعت أولئك الحريصين على استقلال العرب وحريتهم إلى مناشدة صدام ـ على الأقل ـ أن يرحل عن الكويت ، ويترك شعبها كي يعود إلى أرضه وداره ، ويمارس حياته الآمنة مثل بقية شعوب الأرض .. ولكن المؤكد أن الذين ظهروا من الإسلاميين على شاشات التلفزة العراقية ، أو تحدثوا عبر الأثير الإذاعي العراقي لم يقولوا لفخامة الرئيس العراقي : «ارحل من أرض الكويت ، لأن بقاءك سيجلب العالم كله ليحتل العالم العربي كله» .

القوم لم يقولوا هذا أبدًا ، وفي اعتقادي أنهم لن يقولوا ، لأن الذي يعنيهم هو الشجار حول الحلال والحرام في الاستعانة بالكفار لرّد العدوان !

إننا ننزّه الإسلام أن يكون تجارة بين محترفي السّياسة والجاهلين بها ، وهؤلاء وأولئك لا علاقة لهم بالمفهوم الإسلامي للسياسة التي تعني «تدبير المنزل» بما يجب «لمقتضى الأخلاق والحكمة» وفقًا للمنهاج الذي يحقق الرخاء والسعادة للأمة .

ثم إن الاستعانة بالكفّار كانت اضطرارًا دفعنا إليه «عبد الله المؤمن» الذي أذلّ المسلمين وقهرهم وذبحهم وقتلهم بغاز الخردل (سبعة آلاف أو من أهل حلبجة راحوا ضحية الغاز السام) ، بعد أن اجتاح الكويت ، وتلمّظ لا لتهام بقية الخليج وأهله وبتروله !

وإذا كان هناك من القوميّين من يقول بتفضيل الحرب العربية/ العربية على الاستعانة بأهل الكفر ، فإننا نقول: وهل كانت هناك إمكانية لمثل هذه الحرب على فرض وقوعها؟ إن الممكن الوحيد عندئذ كان تسلط «عبد الله المؤمن» على العالم العربي كله بصواريخه وغازاته السامة ودباباته وطائراته بعد أن يكون قد شرّد أهل الجزيرة في قلب التيه !!

ولذا لم يكن بدّ من الاستعانة بالكفار الذي كانوا أكثر نخوة ـ أيًّا كانت الأسباب وراء هذه النخوة ـ من «عبد الله المؤمن» وأنصاره الإسلاميّين والقوميّين جميعًا .

ثم من قال أيها «المستنيرون الإسلاميون» إن الاحتلال الأجنبي على مشارف القرن العشرين يكون بالعساكر والبنادق؟ ألم تعلموا أن الاستعمار قد تطوّر وتقدمت أساليبه؟ إن الاستعمار في هذاالزمان هو استعمار للعقل أولاً ، ثم استيلاء على الثروة بطرق مشروعة (جدًا) كأن يدفع الاستعمار «عبد الله المؤمن» مثلاً لإشعال الحرب مع إيران فتزدهر مصانع السلاح ، فينزح أمواله ومدخراته ليوفر له وسائل الموت والقتل ، أو بطريقة أخرى حين يفتح بنوكه ومؤسساته لتستقبل الأموال الهاربة أو المهرّبة من بلادِها .. ثم إن للاستعمار بعد ذلك رجاله الذين يؤمّنون له القواعد الاستراتيجية عند اللزوم .. ترى ما الذي يلجىء الاستعمار بعدئذ لاستخدام العساكر والبنادق؟ إنه ليس في حاجة إليهما ولا إلى ما يجرّه ذلك عليه من إشعالِ المشاعر الوطنيّة والدينيّة ضدّه ، أو إشعال الرأي العام في بلاده ضدّ تحريك القوات إلى خارجها (جرتْ مؤخرًا مظاهرات عديدة في أمريكا ضد الحكومة الأمريكيّة بسبب حشد قواتها في الخليج) .

ولماذا أيها «المستنيرون الإسلاميون» يا من تزعمون أنكم تقودون الحركة الإسلامية تسكتون عندما كانت القوات

الكافرة تملأ مياه الخليج في أثناء الحرب الإيرانية العراقية ، وتتصايحون الآن عندما جاءت هذه القوات لتردّ غارات قائدكم الإسلامي الجديد «عبد الله المؤمن» الشهير بفخامة الرئيس صدام حسين التكريتي ؟

إن موقف الإسلاميين الراسبين في علم تدبير المنزل يحتاج إلى مراجعة عميقة وفاحصة ، وبخاصة من أولئك المخلصين وأصحاب النوايا الحسنة. أما أصحاب الهوى وطلاب الزعامة ، فإننا نسأل الله لنا ولهم الهداية والرشد ، فالهوى مرض لا منجاة منه إلا بعفو الله وفضله ومنّته .. ويبقى في الجعبة الكثير حول كثير من الممارسات والتصورات التي لا تليق ببعض الإسلاميّين في عصر الصحوة والنهوض ، ونطلب من الله العون والسداد أن يقوموا ـ بأنفسهم أو بمساعدة إخوانهم ـ بمعالجتها وتصويبها ، لأن المسلم عنوان لبقية المسلمين .

***

الجهاد المقدس

« لا يحلُّ دمُ رجلٍ يشهدُ ان لا إله إلّا الله إلّا بإحْدَى ثلاثةِ نَفَر : النّفسُ بالنّفسِ والثيّبُ الزّاني والتّاركُ لدينه المفارقُ للجماعة »

[حديث شريف]

ينبغي أن يكون واضحًا في الأذهان أن الحركة الإسلامية المعاصرة لا تعني تنظيمًا معينًا أو جماعة بعينها ، فالحركة الإسلامية المعاصرة جماع كل التنظيمات والجماعات سواء تلك التي رافقها الرُّشْد والصواب أو تلك التي تنكبت الرشد والصواب .. فكلّها محسوبة على الحركة الإسلامية ومُحَاسَبة عليها .

ثم إن هناك أفرادًا مُسْتَقلّين يعملون في مجال الدعوة الإسلامية أو الفكر الإسلامي ، ولهم دورهم البارز والمؤثّر ، الذي يفوق في بعض الأحيان دور التنظيمات والجماعات ، وهؤلاء جزء رئيس من الحركة الإسلامية .. محسوبون عليها ومحاسبون أيضاً ..

فإذا فوجئنا مثلاً بأن هناك فردًا أو مجموعة من تنظيم إسلامي أو جماعة إسلامية تتخذ موقفًا مخالفًا أو مغايرًا كان على الجماعة أو التنظيم الأم أن يعلن براءته من هذا الموقف ، أو من الموقف والمجموعة معًا ، حتى تتضح الأمور في الأذهان ، وحتى لا تلوّث المجموعة أو الفرد بقيّة الجماعة أو التنظيم ..

ولعلّ ما حدث مثلاً من بعض المنتمين إلى جماعات إسلامية في العالم العربي ، عند غزو العراق لدولة الكويت ، يؤكّد ما قلناه ، ويحتّم ضرورة الوضوح في المواقف والآراء حتى لا يحدث اللّبس ، أو الفتنة ، ويصطاد الانتهازيون في الماء العكر ، وتنتشر البلبلة التي يستفيد منها خصومُ الإسلام والمسلمين ، ويسعد أصحاب الهوى وراكبو الموجة بما يجري .

لقد أصدرت الجماعات العاقلة والتنظيمات المتّزنة والشخصيات المستقلّة بيانات واعية وناضجة ، تدين الغزو العراقي ، وتدركُ أبعاد المأساة التي صنعها الطاغية المستبدّ ، وتحذّر من المخاطر التي سبّبها الإجرام الصدّامي ، وتدعوا إلى الوقوف صفًّا واحدًا في مواجهة المحنة حتى يتم الانسحاب ، وتعود الحكومة الشرعية إلى مكانها ، ويلتئم شمل الشعب الكويتي مرّة أخرى ، ويتفاهم العرب المسلمون على حل المشكلة حلًّا عادلاً ومنصفًا .. وقد أكد بعضهم هذه البيانات أكثر من مرّة ، ثم تطوّع بمحاولة التوفيق بين المجرم والضحيّة ، عن طريق التوسّط من أجل المصالحة والحل السلمي ، وهي محاولة انتهت بالإخفاق في معظم جولاتها ، ولم تثمر عن شيء

ذي بال ، وإن كانت قد أثبتت أن «المجرم» مصرّ على استباحة الإسلام والمسلمين جميعًا ، وأنه يصمّ أذنيه عن كل النداءات الخيّرة والوساطات الطيّبة في استعلاء وغطرسة وحماقة وغرور وفرعنة لم يسبق لها مثيل !!

ومع هذا نجد أن نفرًا من المنتسبين إلى الحركة الإسلامية هنا وهناك يخرجون على المنهج ، ويقفون بجوار الطّاغية تحت دعوى «الجهاد» ضد القوات الأجنبية التي جاءت لتدنّس أرض الحرمين الشريفين ، وتوزيع الثروات بين المسلمين .. ثم إن هذا النفر يرى أنّ انتقاده أو مناقشته أمر لا يجوز !

وإذا كان هذا النفر مخلصًا حقًّا في إسلامه ومنهجه فعليه أولاً أن يقبل النصيحة ، لأن الدين النصيحة ، والنصيحة لله ورسوله وعامةالمسلمين ، ومن واجب المسلم أن يتقبّل النصيحة ، ويرجع عن الخطأ حين يستبين الرشد ، ويبتعد عن الغواية حين يستمع إلى التحذير .. فالمكابرة ليست من أخلاق الإسلام ، ولا صفات المسلمين ، لأنها غباء وجحود واستعلاء في الأرض بغير حق ، وصدق الله العظيم القائل :

﴿ إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل أولئك كان سيئه عند ربك مكروهًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]

وإذا كان قبول النصيحة بدهيًّا في الإسلام ، فإن الاعتقاد بأن انتقاد الحركة الإسلامية من جانب أبنائها يخدم أعداء الإسلام يصبح اعتقادًا غير صحيح ، ويجب أن يتخلص منه من يؤمنون به ، وأُشْرِفُ للإسلاميّين ألف مرة أن يصحّحوا أنفسهم بأنفسهم ، بدلاً من أن يكونوا مُضْغَةً في أفواه أعدائهم وخصومهم وشانئيهم ..

ولا يظنّن أحد أن توجيه النصح إلى أطرافٍ في الحركة الإسلامية مِعْوَلٌ يهدم في كيانها أو يحرّض الغير على مهاجمتها .. فالنصح مفيد لكل الأطراف ـ حتى الناصح نفسه ـ إذا تبين له من خلال الحوار حقائق غائبة أو معلومات جديدة .. أما خصوم الإسلام فليسوا بحاجة إلى تحريض أو استغلال فرصة للهجوم على الحركة الإسلامية ، لأنهم في كل الأحوال جاهزون ومستعدون ، ولا يكفّون أبدًا عن توجيه الحراب إلى قلب الحركة وأطرافها .

إن ما ينبغي الحرص عليه دائمًا هو أن تظل الصحوة الإسلامية المباركة في إطراد لتؤتي ثمارها ، أو تنمو بأقل قدر من الآلام والتضحيات ، لأن عطاءها يحتم البذل والمعاناة بحكم ما تواجهه هنا أو هناك .. ومن ثم فإن الذين يحبّون

الإسلام حقًّا وصدقًا عليهم أن ينأوا بشخوصهم عن مجال الحوار ، وألا يعدّوا الصحوة هي ذواتهم .. فالصحوة فكرة وظاهرة أكبر من كل الأشخاص وأغلى من كل الأفراد ، وهي على كل حال ، تُسْقِط من حسابها أولئك الذين يصنعون لذواتهم الأوليّة على الفكرة ، ويؤكدون لشخوصهم الأسبقيّة على المنهج ..

لقد كشف «صدام حسين» التكريتي بجريمته معالم كثيرة في واقعنا العربي والإسلامي ، وكثير من هذه المعالم يجب تغييره أو استبداله ، لأنه لا يتسق مع منهج الدين ، ولا خلق الإسلام ، ولا أظن أن الأمر يحتمل خلافًا حين نجده يغتال شعبًا عربيًّا مسلمًا فجر يومِ نحسٍ مستمرّ ، فيخرج أحدهم ـ وكان يمثّل قيادة إسلامية ما ـ إلى شوارع البصرة فيهتف للبطل الإسلامي «صدام» ويشيد به وبجريمته النكراء !! من هذا الحال لا يمكن السكوت على ذلك الشخص ، ولا يمكن الرضا بما يفعله ، بل ولا يمكن القبول به داخل الحركة الإسلامية ، لأن المسألة كما قلت ولا تحتمل خلافًا فقهيًّا أو عقديًّا ، ولكنها تمثّل خروجًا على منهج الإسلام وتصوره ، ويقتضي هذا الخروج معالجة حاسمة وواضحة ، لأن الآخرين

في العالم يرصدون كل ما يصدر عنا ويجري في دارنا ويحسبونه من «الإسلام» (!).

وإذا كنّا قد أخفقنا حتى الآن في تقديم نموذج تطبيقي للمجتمع الإسلامي الظافر يقتنع به العالم الغربي ، أو على الأقل يعترف بامتيازه وتفوّقه ، فلا أقل من الاجتهاد في تقديم تصوّر نظري يدفع عن الإسلام غوائل الحقد والنقمة ويجذب إليه المتعاطفين والباحثين .. فقد رأى الآخرون المجتمع المسلم يأكل بعضه بعضًا ، ويحتل بعضه بعضًا ، ويمارس أبشع ألوان التعذيب والقهر وانتهاك حقوق الإنسان .. ثم ألا يكون الأمر مَدْعَاةً للمراجعة حينما نجد من يهتف لكل ذلك من المحسوبين على الحركة الإسلاميّة ؟

ولست بحاجة إلى الحديث حول مسألة توزيع الثروة التي يرفع رايتها بعضهم ، ويكثر من الضجيج حولها بحجة أن الدول الخليجية قد قصرت في الإنفاق على بقية المسلمين وخدمة الإسلام . لقد تولى غيري الحديث عن هذه النقطة وأفاضوا في الحديث حولها ، وأظنني لن أضيف جديدًا في الموضع ، ولكنى أكتفي بالإشارة إلى أن «الحكم الشرعي» هو الذي يفصل بيننا جميعًا في مسألة «توزيع الثروة» ، ولا أعتقد

أن مسلمًا حقيقيًا يرفض حكم الشرع في هذه المسألة .. كما أكتفي بالإشارة إلى أن الدول الخليجية قد قدمت خدمات لا ينكرها أحد من أجل الإسلام والمسلمين أكثر من تلك الدول التي تتسمّى بالثورية والتقدمية ، والأمر لا يحتاج إلى برهان ليعرف الناس من الذي أتاح الفرصة لنشر الدعوة ، ومن الذي «سرق» الإسلام ، أو هجّنه ، أو غيّب الدعاة وراء الشمس ، أو استخدم «المطر الأصفر» لإبادتهم .. ثم أكتفي أخيرًا بتساؤل برىء: هل من العدل أن نطالب الدول الخليجية وحدها بتوزيع الثروة ، بينما هنالك دول بترولية غير خليجية لا يطالبها أحد بتوزيع ثروتها ، بل لا يجرؤ المطالبون على مجرد الحديث إليها بتوزيع الثروة ، ويأتي على رأس هذه الدول العراق نفسه ؟!

إن الدعاوي التي يرفعها بعض الإسلاميين منساقًا وراء أعداء الإسلام من القوميين والعلمانيين واللادينيين ، تؤكد على حال لا يرتضيها مسلم غيور للحركة الإسلامية ومسيرتها .. فضلاً عن كونها تؤثّر سلبًا على الصحوة وتفاعلاتها الإيجابية ..

ولا أظن الانسياق وراء أعداء الإسلام أو المنافقين يؤدي

إلى خير أبدًا ، وبخاصة إذا عرفنا أنهم وقفوا للإسلام والإسلاميّين بالمرصاد على مدى سبعين عامًا أو يزيد ، فحذفوا من الدساتير ما يدل على إسلامية دوله أو شعوبهم ، ورحّبوا بكل تيار غير إسلاميّ ، فضلاً عن تنكيلهم المستمر بالإسلاميّين ، وتشهيرهم بأشخاص الدعاة والمفكرين والقادة الإسلاميين بمناسبة وغير مناسبة ..

حين يأتي هؤلاء القوميون الألداء ليرفعوا الآن راية «الجهاد المقدس» ، ويستخدموا الخطاب الإسلامي ، فإننا ندرك على الفور أنّهم منافقون ، ومستمرون في عدائهم للإسلام والمسلمين .. ولست أجد في مقولة «صدام حسين» وهو يخطب في ذكرى المولد النبوي الشريف (١٢ من ربيع الأول ١٤١١ هـ) والتي وصف فيها احتلال الكويت بأنه «إجراء دفاعي ثوري باركه الله بنجاح منقطع النظير أعاد حقًا مغتصبًا للعراق المؤمن» (الأهرام ١/١٠/١٩٩٠ م) إلّا محاولةً نفاقيّة رخيصة طوّرها القوميون الألداء ، وخدعوا بها بعض الإسلاميّين ، وبخاصة حين تتضمن هذه المحاولة معجمًا لفظيًّا من قبيل «الجهاد المقدس ضد الكفر» و«المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها» و«الجمع المؤمن» ..

ثم من قال إن الجهاد المقدّس مكانه دولة الكويت ضد القوات المشتركة ؟

إن الجهاد المقدس مكانه معروف ، هناك حيث القدس وحيفا ويافا وغزة ونابلس والخليل والجليل والجولان والجنوب ، ومن يريد حقًّا وصدقًا أن يخدم دينه وأمّته عليه أن يرحل إلى تلك الأرض المقدسة التي يتم تهويدها على قدم وساق تحت سمع صدام وبصره ، ويستعد اليهود ـ كما يعلم صدام ـ لهدم المسجد الأقصى تتويجًا لجهودهم الطويلة في إقامة مملكة داود التي يحلمون بها ويعملون من أجلها منذ مائة عام .. وكان الأَوْلى أنْ ترتفع راية الجهاد في اتجاه القدس ، وكان على صدام ومن معه من الإسلاميّين والقوميّين والذين لا خلاق لهم أن يستخدموا هناك «الكيماوي المزدوج» ، ليكون جهادهم حقيقيًّا ، وأعتقد أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها سيقاتلون تحت رايته ، وسيكون هذا «الجمع المؤمن» رهن إشارته ، بل إني ـ الفقير إلى الله ـ أضمن له أن جميع الحكام العرب سوف يسلّمون له بقيادة الأمة العربية تلقائيًا وطواعية ، وسوف يضعون تحت تصرفه كل الثروات والممتلكات ، وسوف يجعلونه زعيمًا وحيدًا وأوحد وإمامًا للمسلمين !!

فهل يفعلها صدام والذين معه وعلى رأسهم بعض الإسلاميين؟ لا أظن !!

إن الجهاد له شروط وله معالم وله أخلاق.. وما فعله صدام في أرض الكويت ليس جهادًا ولا إسلامًا ، وإذا كان بعضهم يحاول أن يجعل من مسألة الجهاد ضد القوات الأجنبية في الخليج طريقًا إلى دخول الجنة فقد ضل السبيل .. لأن هذه القوات راحلة لأسباب خاصة بها ، بعد انتهاء مهمتها وهدفها ، أي بعد تحرير الكويت وتأمين الخليج ضد مغامرات «عبد الله المؤمن» إيّاه .. لقد كنت أتمنى أن يتقدم دعاة «الجهاد المقدس» لنجدة الكويت فور وقوع الجريمة الصدامية ، ولكن القوم لم يفعلوا أبدًا ، وإنما انتظروا حتى جاءت النجدة فتغافلوا عن الجريمة والمجرم ، وراحوا يحاربون في غير ميدانهم .

يعلمنا رسول الله ﷺ أن الغزو يكون باسم الله وفي سبيل الله .. وليس باسم القومية أو في سبيل البعث. **عن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر رجلاً على سرّية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من**

المسلمين خيرًا وقال: « اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا » . [الدارمي ٢/٢١٥]

فهل معركة صدام جهاد في سبيل الله؟ عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: « لا يحل دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاثة نفر: النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة ». [السابق: ٢/٢١٨]

فهل في قتلى الكويت الذين قتلهم صدام واحد من هؤلاء؟ وهل قتله لهم جهاد في سبيل الله تجب مؤازرته ومساندته ؟

يحزنني أن أعتب على بعض الإسلاميين، ويؤلمني أن أرى لديهم قصورًا، لأنهم أمل الأمة، وحلمها الجميل، وبشراها المنتظرة، بعد أن طال ليل الظلم والتخلف والاستلاب، وأعرف أن كثيرًا من الحراب مصوّبة إلى الحركة الإسلامية، وكثيرًا من المؤامرات تدبّر لهم في العلن والخفاء، ومن هنا أردت أن تكون كلماتي تنبيهًا يشير إلى بعض نواحي الخلل في الحركة الإسلامية على ضوء المعطيات التي خلّفها إجرام الطاغية البعثي، الذي ينفذ بذكاء ودقّة «استراتيجية» خبيثة

تستهدف أول ما تستهدف إسلامنا وعقيدتنا ومستقبلنا فضلاً عن وجودنا .. فصدام ليس مجنونًا ولا مخبولاً ، ولكنه يحقق أهدافًا بعثية واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ويحدوني الأمل أن يقوم عقلاء الحركة الإسلامية بإصلاح الخلل الذي أصاب بعض نواحيها ، وأن يأخذوا الأمر بالحكمة والحزم . وأن يشفوا صدور قوم مؤمنين ، وصلى الله وسلم على خير بشير ونذير وداعية إلى الله بإذنه .. فقد كان ومازال وسيظل سراجًا منيرًا .

***

حكمة القدر

« أخِي جاوَزَ الظّالمون المدَى
فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفِدَا »
[علي محمود طه]

يوم تمّ إعدام المجرم اليهودي «**مائير كاهانا**» في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٩٠/١١/٦) ، تنفّس المسلمون الصعداء ، وظنّوا أن الذي قام بالإعدام فلسطيني من المنتمين إلى المنظمات الفلسطينية العديدة ، كما ظن المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة قد التفتوا إلى قضيتهم وانشغلوا بها بعد طول انشغال والتفات بغيرها .. وكانت المفاجأة أن الذي قام بإعدام الإرهابي اليهودي «مائير كاهانا» **شابٌ مصريٌّ اسمه «السيد نصير»** تحرّك في أعماقه القهر بعد مقتل أكثر من عشرين مسلمًا فلسطينيًا على بوابة المسجد الأقصى الأسير ، فعبّر عن رفضه للإجرام اليهودي بإعدام رأس من أكبر الرءوس اليهوديّة المدبّرة للإجرام والإرهاب والقهر .. وكان موقف «**نصير**» العمليّ الذي زلزل الكيان اليهودي ، وأثبت للدنيا كلها أن القضية الفلسطينية لم تزل إسلاميّة حتى لو اعترّ (من المعرّة) بعض «المناضلين» من الإسلام والمسلمين ، كما أثبت للدّنيا كلها أن القضية الفلسطينية لن تحلّ إلّا بالإسلام

وتحت رايته الخضراء ، كما فعل ذات يوم البطل المسلم «صلاح الدين الأيوبي» .

ومن المؤكد أن للقدر حكمة في أن يقع هذا الحادث في هذا الوقت بالذات ، بينما زعماء المنظمات مشغولون بقضايا أهم وأخطر كثيرًا ـ من وجهة نظرهم ! ـ من القضية الفلسطينية والمأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة تحت سطوة القهر الصهيوني والإذلال اليهودي صباح مساء !

لقد انشغل الزعماء بمباركة الجريمة الصدامية في الكويت ، ولم يكتفوا بذلك بل هتفوا لفخامة الرئيس المهيب الركن «صدام حسين» التكريتي ، وتوّجوه خليفة لصلاح الدين الأيوبي بل جعلوه «صلاح الدين الأيوبي» نفسه ـ بالرغم من بعثيّته المجرمة ـ لأنه في تصوّرهم سيحرق نصف إسرائيل ـ وليس كلها ـ لماذا؟ ـ وأنّه سيحرّر الأرض والعِرْض ويعيد القدس إلى بهائها وصفائها وحريتها ..

والأدهى من ذلك أن القوم لم تشغلهم قضيّة الاحتلال ولا تشريد الشعب الكويتي ولا سلب أمواله وأعراضه

وممتلكاته ، ولا تشريد بقية الجنسيات وعلى رأسها مئات الألوف من المصريّين في الصحاري الملتهبة بعد تجريدهم من ادميتهم وعرقهم وأغراضهم .. وإنما الذي شغلهم هو وجود القوات الأجنبية في الخليج ، وأعلن بعضهم أنه سيحوّل الخليج إلى نار مشتعلة ضد الوجود الأجنبي ، كما أعلن هذا البعض عن تجهيز **أربعين ألفًا من «المقاتلين الفلسطينيين»** للنضال ضد الأمريكيّين وبوارجهم الحربية !!

وبدا للقيادات الفلسطينية أن تقوم بدور «العرّاب» الذي يسعى للتوفيق بين الأطراف المعنيّة ، فقامت برحلات هنا وهناك للترويج لحلّ المشكلة على أساس مكافأة المعتدي والإقرار له بصواب ما فعل ، بل والاعتذار عن كل معارضة للجريمة وآثارها البشعة ، ويتلخص الحلّ في منح الكويت حكمًا ذاتيًا من جانب العراق ـ وآه من عصر الحكم الذاتي ! ـ على نمط مقاطعة «مونت كارلو» في فرنسا ، وإجراء انتخابات في «مقاطعة» الكويت لاختيار مجلس الحكم الذاتي .. باختصار استمرار الاحتلال العراقي وسيطرته ، وبالطبع لا عودة للحكومة الشرعية ، ولا للمشردين في الأرض من أهل الكويت وشعبها !!

ثم بدا لبعضهم أن «يُجمّل» الصورة الفلسطينية القبيحة ، فأعلن أن الموقف الفلسطيني لم يُفْهم على حقيقته ـ وكأن الناس جميعًا أغبياء إلَّا الزعماء الأشاوس ـ وأن هذه الحقيقة تكمن في ضرورة الانسحاب «المتزامن» للقوات الأجنبية والقوات العراقية ـ فتح الله عليك يا مناضل !

من المألوف أن تقف بعض الدول ذات المصالح الضيقة موقفًا انتهازيًا رخيصًا يتوافق مع حاجتها ومصلحتها .. أما القيادات الفلسطينية فلا ناقة لها ولا جمل في الأمر كله ، فلديهم شأنهم الذي يحتاج منهم إلى كلّ دقيقة في أوقاتهم الثمينة ـ إن لم يكن للفلسطينيين في المهجر ، فللفلسطينيين في الداخل الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وبخاصة أن العدو اليهودي في أيامنا قد شدّد من قبضته على الشعب الفلسطيني قهرًا وعسفًا وإرهابًا .. بل يتعامل معه يوميًّا بمنطق الرصاص وتهويد الأرض ، والتركيز على القدس المسلمة لتحويل أهلها إلى أقليّة يمكن التخلص منها في لحظة ما !

الشعب الفلسطيني تحت الإحتلال في حاجة إلى القيادات التي تتحدث إلى العالم باسمه وتتلقى الدعم باسمه ، وتستقبل الضرائب باسمه ، لتعالج شئونه وشجونه ، وترتّب في صمت

وحكمة طرق التغلّب على المحن التى يصنعها الاحتلال ويخلفها الإرهاب اليهودي .. ولكن هذه القيادات تأبى إلا أن تزج بنفسها في معترك ليس معتركها وميدان ليس ميدانها .. ثم تشكو من قلة الدعم العربي وتخاذل العرب وخلافات العرب !

إن القيادات الفلسطينية حين تضع نفسها في مستوى الدول العربية الأخرى ، وتتعامل بمنطقها ، فتعادي هذا وتسالم ذاك ، إنما تضع نفسها في موضع لا تحسد عليه؛ لسبب بسيط جدًا ، وهو حاجتها الماسة إلى الجميع ومن لم يساعدها ماديًّا فله دوره المعنوي الذي قد يتعادل مع المساعدة المادية .. ومن ثمّ ، فإن خسارة طرف عربي أو إسلامي ـ مهما كان دوره متواضعًا ـ يمثّل خسارة كبيرة للفلسطينيين أنفسهم ، وليس للمنظمات أو القيادات ..

تستطيع الدول العربية أن تعادي أو تسالم انطلاقًا من أسباب أو مسوّغات مقبولة بالنسبة لها وإن رفضناها نحن أو رفضها الغير .. أما المنظمات فمن أي منطلق تعادي أو تسالم شقيقاتها العربيات والإسلاميات وهي بلا كيان ولا أرض ولا دولة ؟!

لو أن القيادات الفلسطينية نظرت مثلاً إلى «**الجهاد الأفغاني**» ـ وهو أحدث منها وجودًا ـ لأدركت أن المجاهدين الأفغان كانوا أكثر وعيًا بدورهم الجهادي أو التحريري ؛ فبالرغم من قسوة الظروف التي يعيشونها وقلة الإمكانات والدعم الذي يتلقونه ، وشراسة العدوّ الذي يواجهونه إلا إنهم لم ينغمسوا في مشكلات غيرهم ، وبالرغم من الخلافات التي قامت بين أجنحتهم على أساس مذهبي إلا إنهم حافظوا على قاسم مشترك يوحّدهم؛ وهو عدم التدخل في شئون الغير ، فاكتسبوا احترام الجميع حتى أعدائهم ، وكانت تجربتهم التي مازالت قائمة بعد إرغام الشيوعيين الروس على الرحيل ، مثار اهتمام الدوائر المعنيّة في الشرق والغرب حتى اليوم ، وكم طالبتُ في أكثر من موضع أن يستفيد الإخوة الفلسطينيون من التجربة الأفغانية ولعل آخرها ما ورد في كتابي الذي وضعته عن الانتفاضة الفلسطينية في الأرض المحتلة بعنوان [ثورة المساجد: حجارة من سجيل ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ٨١٩٨٩ م] ، ولكن البعض لم يعجبه ذلك ، فسلّط الأبواق المأجورة ، وبخاصة من الطائفيين المتعصّبين لإعطائنا دروسًا ملخصها أن العدوّ هو المستفيد من أية مناصحة

للقيادات الفلسطينية فضلاً عن الإسفاف في تناول الناصحين !!

إن أية مقارنة بين **الجهاد الأفغاني** و«**النضال الفلسطيني**» ليست في صالح الأخير بحال ، سواء في التصوّر أو في الحركة .. فإذا كان الجهاد الأفغاني قد رفع راية التصوّر الإسلامي طريقًا وحيدًا وأوحد لتحرير أفغانستان وإقامة الدولة الإسلامية على أنقاض النظام الشيوعي الغشوم ، **فإن «النضال الفلسطيني» رفع راية العلمانية والاشتراكية في طريقه لتحرير ما يستطيع من الضفة والقطاع ـ بدون القدس طبعًا ـ ولم يدخر جهدًا في محاربة الراية الإسلامية والتشهير بها وملاحقة المنتسبين إليها ، فضلاً عن التخلي تمامًا عن «البندقية» مع إعلان الاعتراف بدولة العدوّ ، والتسليم له بـ ٧٨٪ من مساحة فلسطين ، وتدويل القدس [أي جعلها تحت السيادة اليهودية عمليًا] ، والتعهّد بمحاصرة من يسمّون بالأصوليين والقضاء عليهم [انظر محاضرة «هاني الحسن» في الجمعية الراديكالية لحزب المحافظين البريطاني بلندن يوم ١٩٨٩/١٢/١١ ونشرتها مجلة اليوم السابع التي تصدر في لندن بتاريخ ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ م. وهي تكشف أسرارًا خطيرة ليس هنا مجال سردها].**

ونحمد الله على أن أهل الضفة والقطاع لم يسيروا على هدى القادة في الخارج ، بل سلكوا الطريق الصحيح بفطرتهم ، فقد اهتدوا إلى الأيديولوجية التي يحاربها القادة عادة ، وهي «الإسلام» حيث صارت المساجد موطن الجهاد ومنطلق المقاومة ، وصارت الرؤية الإسلامية هي التي تحكم المجاهدين الفلسطينيين في مواجهتهم اليومية للعدوّ اليهودي ، وصار التكافل الإسلامي استراتيجية ثابتة في مواجهة آثار القهر والاستلاب والقمع تحت الاحتلال اليهودي .. وكانت نتيجة الإيمان بالتصور الإسلامي أن تغيّرت المعادلة في الأرض المحتلة ، وصارت الريح لا تجري رخاءً بالنسبة لليهود .. ومن ثمّ صار الفلسطينيون في الضفة والقطاع أحق بالدعم والمساندة قبل غيرهم .

ومهما يكن من أمر؛ فإن الموقف الفلسطيني على مستوى القيادات لم يكن موفّقًا بحال ، تجاه الجريمة البعثية ضد الكويت شعبًا وحكومة ووطنًا ، وهو ما يفرض على هذه القيادات مراجعة نفسها مراجعة شاملة تضع في حسبانها عوامل الإخفاق الذريع الذي جرى للقضية منذ بدء تشكيل المنظمات قبل ربع قرن وحتى الآن ، وعليها أن تبحث سرّ

هذا الإخفاق ، هل يكمن في العقيدة «النضالية» أم في الحركة التاكتيكية أم فيهما معًا ؟

كذلك فإن من الطبيعي النظر إلى مسألة التدخل في شئون الآخرين ، والانحياز إلى هذا الطرف أو ذاك ، وهي مسألة جرّت كثيرًا من المتاعب والخسائر والأحزان على الفلسطينيين و«النضال» الفلسطيني وآخرين ممّن كان يُفْترض أن يكونوا عَوْنًا ودعْمًا فأرغموا على أن يكونوا في المعسكر المضاد .

لقد كانت التجارب الدامية للمنظمات في الأردن وسورية ولبنان محسوبة عليها ، ومخصومة من مكاسبها أو أرباحها ، وأعتقد أنه لم يبق في رصيدها شيء إلا الأسى والدموع والأوجاع .

أما تجربة الكويت ، فإن لها طعم العلقم في نفوس الكثيرين ، فضلاً عن أهل الكويت ، لأن الشعب الكويتي وحكومته من أقرب الناس في العالم للمنظمات الفلسطينية ، والشعب الفلسطيني .. ويكفي أن نشير أولاً إلى أن ٤٠٪ على الأقل من سكان الكويت ينتمون إلى فلسطين .. أما بعد ذلك فكثير ..

يكفي أن نشير إلى أن بداية تشكيل المنظمات كانت في الكويت ، وأن دعم هذه المنظمات انطلق من الكويت .. ثم إن صحافة الكويت وإعلامها كانا دائمًا لسان المنظمات والشعب الفلسطيني حتى في هذه المواقف الخاطئة ضد الأشقاء العرب !!

ثم إن أكبر دعم من الفلسطينيين للمنظمات كان يأتي من دولة الكويت ، التي يريد البعض تحويلها إلى محمية عراقية على غرار إمارة «مونت كارلو» !

كل هذا لم يشفع للكويت الأسيرة عند القيادات الفلسطينية في المنفى ، لتقف إلى جانب الحق والعدل والإنصاف ـ أو على الأقل اتخاذ موقف الحياد السلبي ، ولهم في ذلك مندوحة وأكثر ، ولكن الإجهاز على الجريح ـ فيما يبدو ـ كان غاية هذه القيادات !

لقد ورّطت هذه القيادات بعض الفلسطينيين في الكويت لإرشاد المجرم الغازى إلى بعض المواقع الكويتية والأشخاص الكويتيين الذين لهم دور وتأثير ، فضلاً عن إبداء الشماتة والتطاول على الغير ، مما أعطى انطباعًا بأن كل الفلسطينيين

كذلك مما تسبب في ظلم بعض الشرفاء ، وترك آثارًا سيئة في بعض النفوس هنا وهناك ، ولولا حكمة بعض العقلاء في العالم العربي لكانت النتائج غير طيبة بالنسبة للشعب الفلسطيني في المهاجر ..

إن تأييد الاحتلال العراقي للكويت يعطي ذريعة لليهود كي يستبيحوا فلسطين وغيرها انطلاقًا من التأييد الفلسطيني .. وتلك هي الخطورة الأكبر على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، وأحسب أن اليهود قد استغلوا تلك «النقطة» استغلالاً جيدًا حيث ازدادت قسوتهم على الفلسطينيين في الضفة والقطاع ، وما مذبحة المسجد الأقصى ببعيدة ، ثم إن الانشغال الفلسطيني بتأييد الطاغية العراقي والهتاف لزعمائه ، قد جعل الانتفاضة تتراجع على مستوى الاهتمام العالمي والدعائي ، وجعل أهل الضفة والقطاع في مصيدة الإجرام اليهودي فريسة سهلة ، بعد أن رأى الناس أن القيادات تقرّ الإجرام الصدَّامي وتؤيده وتسانده وتهتف له !

إن ما جرى على الساحة الفلسطينية انتكاسة كبرى؛ تفرض المراجعة الشاملة ، وتقضي بأن تكون هذه المراجعة مخلصة وصادقة مع تسليم القيادة للقادة الحقيقيّين الذين

يدفعون دمهم ورزقهم وأمنهم في سبيل القضية واستمرارها .. الفلسطينيين بأبصارهم وأعماقهم إلى داخل الأرض المحتلة قبل أي مكان آخر ، فهي الأَوْلى بالرعاية والأحق بالاهتمام ، وقذيفة حجرية في القدس أو غزة أو نابلس خير ألف مرّة من وساطة بين هذه الدولة أو تلك ، أو محاولات لإطلاق سراح رهينة ، أو تأييد لعملية ما أو شجب لها .

وخير لنا أن نصحح أنفسنا بأنفسنا ، قبل أن تفرض الظروف هذا التصحيح ، لأنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح .

* * *

الصناديق المغلقة

﴿ومَنْ يقتُل مؤمِنًا متعمّدًا فجزاؤهُ جهنّمُ خالدًا فيها. وغَضِبَ اللهُ عليه ولعَنَهُ وأعدَّ لهُ عذابًا عظيمًا﴾

[سورة النساء: ٩٣]

أعلن الرئيس حسني مبارك في طريق عودته من دمشق بعد زيارته لسورية في (١٥ من نوفمبر ١٩٩٠)، أن عدد الجثث التي وصلت من العراق لمصريين «قُتِلوا» هناك بلغت **ثمانية آلاف جثة مصرية** !! وكان الرقم الذي أُعْلِن رسميًا في نهايات عام ١٩٨٩ رسميًّا هو «١٠٢٥» جثة مصرية .. الفارق بين الرقمين كبير بالطبع ، ولعل السرّ في هذا التفاوت يرجع إلى الظروف التي أعلن فيها كل منهما ، والملابسات التي أحاطت بالموقف هنا أو هناك ، أو ما يسمى بالملاءمات أو المواءمات السياسية التي تفرض على مصر سلوكًا معينًا يتصل بظروفها وأمنها القومي ..

دلالة الإعلان مثيرة وعاصفة ، فثمانية آلاف رجل يضيعون في ظروف غامضة ، ويعودون إلى وطنهم في صناديق مغلقة لا تتيح لأهليهم رؤية التهشيم أو التشويه الذي أصابها أو أصاب معظمها ..

لقد ذهب المصريون إلى العراق ـ كما يذهبون إلى غيرها من بلاد الله ـ من أجل البناء والتعمير ، لا يحمل أحدهم قنبلة

في حقيبته ، ولا مسدسًا في ردائه ، ولا بندقية في متاعه ، ولا منشورًا في كتبه .. وهم عندما يخرجون من وطنهم إلى الغربة يحلمون بالنجاح في مهمتهم ، والسعادة في إقامتهم ، والعودة إلى أرض الوطن ببعض الحصاد نتيجة الجهد الذي بذلوه ، والعرق الذي أفرزوه ، مع ذكريات طيبة وجميلة عن أصدقاء ومعارف وزملاء قضوا معهم زمانًا قصيرًا أو طويلاً .. ثم إنهم في كل الأحوال راضون قانعون بما قسم الله ، حتى لو نالوا ربع الأجر الذي يحصل عليه نظراؤهم الأجانب ، وبذلوا ضعف الذي يبذله أمثالهم من جنسيات الأرض الأخرى ..

وهم على حالهم تلك ، يعتقدون أن العمل في أرض عربية إسلامية نوع من الواجب تجاه إخوانهم العرب المسلمين يسعون إليه بحكم عقيدتهم وخبرتهم ومهارتهم ، ويرون فيه فائدة مشتركة ومتبادلة للجميع ، ولأن المصري بطبيعته هادىء الطبع ، مسالم في علاقاته مع الآخرين ، فإنه يكره الشغب ، ولا يميل إلى العنف ، ولا يُسْتَثَارُ بسهولة .. ومن ثَمّ ، كانت المعاملة العراقية للمصريين قتلاً وإذلالاً وإهانة علامة من علامات عصر الانحطاط القومي ، والخواء الديني

ودلالة فاجعة على ما وصلت إليه أمتنا تحت حكم الطغاة من أمثال طاغية العراق وحاكمها الشاذّ .

لقد ذهب المصريون إلى العراق في فترة حرجة ، هي الفترة التي التحق فيها العراقيون بالجيش العراقي ليقاتلوا إيران تنفيذًا لمشيئة الحاكم الأوحد في بغداد ، وكان لابد من ملء الفراغ الذي حدث على الجبهة الداخلية .. ولسبب ما رأى المسئولون في مصر أن يتسامحوا ويتساهلوا في تدفق الشباب المصري على العراق من أجل العمل ، والحلول محل إخوانهم العراقيّين الذين تركوا مصانعهم ومدارسهم ومزارعهم ومحلاتهم ليرتدوا الملابس الزيتونية الخضراء ، ويذهبوا إلى الجبهة .

أكثر من مليوني مصري غصّت بهم بغداد والبصرة والموصل وكركوك وبقية المدن والقرى العراقية ، راحوا يعملون بجدّ وهمة في كافة المرافق ، ولم تحدث فجوة أبدًا بين الجبهة العسكرية على الحدود مع إيران أو الجبهة الداخلية التي تعني الحياة المدنية .. لأن المصريين قاموا بسد هذه الفجوة .

ترى ماذا كان حصاد المصريّين ؟

كان الحصاد تجنيد الآلاف منهم ـ ومعظمهم كان قد أدّى

الخدمة العسكرية في مختلف التخصصات بالجيش المصري ـ وترحيلهم إلى الجبهة ، وتمّ ذلك بالإغراء أحيانًا وبالإرغام في أحيان أخرى ..

ثم إن من لم يذهب إلى الجبهة يعمل ولا يستطيع تحويل كل أجره إلى مصر ، وسمح لهم بتحويل جزء بسيط منه ، إلى بنك الرافدين بالقاهرة يتسلمه صاحبه أو المحوّل إليه بعد شهور طويلة ، ويصطف المستفيدون أمام البنك في قلب (مصر المحروسة) وفي طوابير طويلة .

أما حياة المصريّين في قلب عاصمة الرشيد فحدث عنها ولا حرج ، ويكفي أن يكون المصرى ـ على كفاءته وأخلاقه ـ موضع السخرية والإهانة والملاحقة .. وتسأل: لماذا؟ فلا تجد جوابًا إلا أن تتذكر المثل الذي يتحدث عن «جزاء سنمّار» ..

وبالطبع لا أقول إن المصريّين ملائكة ، ولا أقبل أن يصفهم أحد بأنهم شياطين .. ولكن أليس من الأكرم أن نتعامل بالحسنى مع أشقائنا وبخاصة إذا جاءوا ليقفوا بجوارنا ويبذلوا

دمهم ويقدموا مساعداتهم دون شروط أوْ مَنّ أو أذى؟ أليست هنالك وسيلة لمعالجة الأخطاء ـ على فرض حدوثها ـ دون إهانة الشقيق أو تعريض كرامته للإهدار والانتهاك؟ هناك بالطبع أكثر من وسيلة . ولكن الحنق يمنع صاحبه من الإنصاف والعدل ورؤية الأمور من كافة زواياها .. وتلك آية الجاهلية الأولى التي أحيتها الجاهلية البعثية ، وكرستها في تعاملها مع المصريّين وبقيّة الأشقاء العرب والمسلمين .

كان من المفروض مثلاً أن تعترف الجاهلية البعثية في بغداد «بالجميل» وتدرك أن مصر حين بذلت دمها ووقفت إلى جانب الشقيق العراقي يوم تقدم الإيرانيون نحو «البصرة» لم تكن ذلك الشقيق الذي آذاه «صدام» عام ١٩٧٩ حيث فرض على شعبها المقاطعة السياسية والإقتصادية والتجارية والثقافية ، وتاه اختيالاً بنجاحه المنقطع النظير في التضييق على المصريين بطرد حكومتهم من الجامعة العربية ومنظماتها مع قطع العلاقات الديبلوماسية وإغلاق السفارات .. بل كان ذلك الشقيق هو الأكرم خلقًا ، والأكبر تسامحًا ، فجاء بخبرته وخبرائه ، وسلاحه وعتاده ، ودمه ورجاله ، ليوقف الزحف الإيراني ، ويفرض عليه التراجع ، ويستخلص منه البصرة

والفاو ، ويردّه إلى ما وراء شط العرب ! وكانت المفارقة أن الحكومة المصرية لم تعلن عن ذلك رسميًا إلا مؤخرًا وبعد مرور حوالي الشهرين على الجريمة البعثية في الكويت ، حيث عرف الناس أن آخر فوج من الخبراء العسكريّين وغيرهم قد عادوا إلى مصر بعد أن أدّوا مهمّتهم إلى جانب العراق الشقيق ..

كان ينبغي أن تخجل الجاهلية البعثية ، وتستحي في تعاملها مع المصريّين ، وتتورع عن قتل ثمانية آلاف مصري لا ذنب لهم ولا جريمة إلا مساعدة العراق وشعبه وحكومته في مواجهة المصاعب والمتاعب التي فرضتها الحرب الإجرامية التي أشعلها البعث الصدامي على مدى عشرة أعوام.

لقد صار يقينًا أن أجهزة القمع العراقي كانت وراء مقتل المصريّين ، وترحيلهم جثثًا مشوهة داخل صناديق مغلقة ، دون إحساس بتأنيب الضمير أو شعور بالإثم .. وكل ما هنالك تقرير مزيف يضعه طبيب تابع للجهاز القمعي العراقي مع الجثة ، وأحيانًا تصل الجثة داخل الصندوق بلا تقرير ، زيادة في الفجور ، وتأكيدًا للبلطجة الجاهلية البعثية !!

قد يتصور «صدام» وأشياعه أن الشعب المصري أهبل

وعبيطًا ، وينسى كل شيء بعد حين ، ولكن هذا تصوّر خاطىء وغبيّ ، فالشعب المصري الذي يزرع النور والخضرة والأمل في كل مكان يحلّ به لا يمكن أن يكون أهبل وعبيط ، أو ينسى من أهانه أو استباح دمه .. وللأسف يبدو أن «التسامح» يُفَسَّر تفسيرًا مزاجيًّا يشبع رغبة الجاهلية البعثية في صلفها وغطرستها وجلافتها !!

ومن الغريب أن موقف الإعلام العربي والصحافة العربية لم يكن على مستوى الحدث وأبعاده ، حيث لم يتعرض أي منهما لمغزى معاملة المصريّين على يد الجاهلية البعثية بهذا الاستخفاف وتلك القسوة البشعة ، بعد أن ساندوا الشعب والحكومة في العراق الشقيق ، **ولم تلتفت الصحافة أو الإعلام في عالمنا العربي إلى أن هذا السلوك البعثي المشين ، كان مقدمة طبيعية لاغتصاب الكويت واجتياحها وتشريد شعبها ونهب ممتلكاتها وثرواتها .. لقد كان السلوك الجاهلي البعثي كفيلاً بأن يثير لدى صناع الرأى وأصحاب المشاعر المرهفة تساؤلاً ملحًّا حول المجرم والجريمة ، ولكن أحدًا لم يتساءل أو يبحث عن تفسير للسلوك الجاهلي البعثي .. هذا السلوك الذي تمادى في جاهليّته وتصوّر أن مصر التي أعانته على تحرير البصرة والفاو وإرغام الطرف الآخر على إيقاف الحرب ، ستعينه أيضًا**

في جريمته ضد الكويت ، وستقف معه حتى يبتلعها ويهضمها ويهدد الآخرين بالابتلاع والهضم أيضًا .

وتنسى الجاهلية البعثية أن مصر المسلمة بلد متحضّر ، وتملك الأخلاق العالية والقيم الرفيعة التي لا تتغير بتغير أحوالها ولا تتبدل بتبدل الظروف من حولها ، بل إن لها من أخلاقها وقيمها مندوحة تجعلها تغفر وتسامح وتقف مع الحق ضد الباطل ، ومع المظلوم ضد الظالم .. ومن ثمّ كانت المفاجأة للجاهلية البعثية حين وجدت مصر تهبّ لنجدة المظلوم ، وتبذل أقصى ما تملك ضد اتساع الجريمة الصدامية ، وتبعث بخيرة الأبناء للوقوف في وجه الجريمة .

وللأسف الشديد فإن الجاهلية البعثية تصوب مدفعيتها الإعلامية الثقيلة بكل ما تحمله من بذاءات وافتراءات ضد مصر وشعبها ، وكأن مصر هي التي ارتكبت جريمة احتلال الكويت ، وهي التي خرجت على الأعراف العربية والأخلاق الإسلامية والقوانين الدولية !! ونسي الجاهليون البعثيون أن مصر هي أكبر دولة تضررت من الجريمة الصدامية :

- فقدت مصر (رسميًّا !) ثمانية آلاف من أبنائها على أرض العراق الشقيق ، حيث قتلوا ظلمًا وعدوانًا .

- فقدت مصر حقوق أبنائها من العاملين في العراق ، فضلاً عن مستحقاتها من الديون التي تخص جهات رسمية وشركات ومؤسسات قومية ووطنية ، وتبلغ في بعض التقديرات ما يساوي ثلاثة مليارات من الدولارات .
- ذاق مئات الألوف من العاملين المصريين في الكويت والعراق صنوفًا من الإهانات والمعاناة لا مثيل لها ، وهم يهربون من جحيم الجريمة الصدّامية ، ويعبرون الصحراء الحارقة في الأردن والمعاملة المتجهمة من الأردنيّين حلفاء صدام أهلها ، وينتظرون الأيام والليالي في العراء أو الخيام من أجل العودة إلى الوطن الحزين والشعب الجريح .
- وفقد المصريون العاملون في الكويت تسعة مليارات من الدولارات مدخرات لهم ، وحقوقًا اغتالها العدوان الجاهلي البعثي على الكويت ، فضلاً عن المعدل السنوي الذي كان يحوّله العاملون إلى مصر ويبلغ قرابة مليار ونصف مليار من الدولارات ..

أما مصر نفسها فقد فقدت دخلاً سنوياً يقرب من عشرة مليارات من الدولارات بسبب نقص السياحة وقلة المرور في قناة السويس ، فضلاً عن الأعباء الإضافية التي فرضها

التسليح والكساد الاقتصادي وعودة العاملين من الخارج وتدهور صناعات التصدير إلى منطقة الخليج وغيرها ..

مصر التي تضررت وصارت أكبر المتضرّرين بسبب الجريمة الجاهلية البعثية ، حتّمت عليها أخلاقها أن تنسى الماضي البشع لصدام ، وتتجاوز عن الجراح التي خلفتها جريمته ، وتفكر في إنقاذه من نفسه ، وتعطيه فرصة الخروج حفظًا لماء وجهه [وكأن في وجوه المجرمين ماءً !]، ولكن المجرم أصرّ على الغرق في بحر الجريمة حتى يصل إلى القاع .

كان من الممكن أن تطالب مصر بطرده من الجامعة العربية وقطع العلاقات السياسية والدبلوماسية والاقتصادية معه ، وأن تذيقه من الكأس نفسها التي أصرّ على أن تشربها مصر عام ١٩٧٩ م .

ولكن المفارقة تكمن في أن الجاهلية البعثية تصرّ على معاقبة مصر ، لأنها تجرأت ووقفت في وجه المجرم والجريمة ورفضت ما ترتب عليه من آثار .. وراح السيد طارق (طوني) حنا عزيز ، نائب رئيس الوزراء العراقي ، ورئيس لجنة نقل الجامعة العربية إلى القاهرة ، يحرّض الدول العربية رسميًا ودعائيًا على

بقاء الجامعة العربية في تونس مخالفًا بذلك ما أقره وزراء الخارجية العرب وممثلو الدول العربية لإعادة الجامعة إلى مقرّها الأصلي ! هذا الموقف لا يضير مصر ، ولكن الرجل البعثي يحاول أن يتلمس وسيلة ما للانتقام من حكومة مصر وشعبها ، نتيجة لموقفها الخُلُقي من شقيقاتها العربيات وبخاصة الكويت ودول الخليج .

ويبدو أن الغشاوة على عين الجاهلية البعثية قد أصبحت سميكة لدرجة أنها لم تعد ترى إلا نفسها وذاتها وإحساسها بالتضخم والنرجسيّة ، ومن هنا لم تدرك الدور الذي تلعبه مصر لإنقاذ العراق والكويت معًا من التعرّض للدمار والخراب ، بسبب إصرار صدام على احتلال الكويت وتشريد شعبها .. وحتى الآن فمازالت مصر الحكومة والشعب تتمنى ألا تهرق قطرة دم واحدة في ميدان القتال ، وأن تحلّ المشكلة سلميًا بانسحاب صدام من الكويت وإعادة الحكومة الشرعية ثم التفاوض للاتفاق على حلّ القضايا المعلّقة ووضع ترتيبات لنظام أمني عربي يحفظ للجميع حقوقهم ويحفظ على الجميع كرامتهم .

بالرغم من كل هذا ، تحاول الجاهلية البعثية أن تقلب الأمور رأسًا على عقب ، فتتهم مصر بدق طبول الحرب والتحريض عليها ، وتتخذ من الأبواق المأجورة في بعض الدول العربية والأجنبية وسيلة لتجريح مصر والمصريّين .. ونسيت الجاهلية البعثية أن في كل بيت مصرى واحد على الأقل قد أضير بسبب الجريمة الصَّدامية ، فإن لم يكن قد عاد جثة مشوهة في صندوق مغلق ، فقد عاد أشعث أغبر مجرّدًا من ماله ومتاعه وحقّه ، أو لم يعد أصلاً وصار ضمن «المفقودين» إلى الأبد (!) وهو ما يجعل محاولتها الإجرامية غير مجدية .

ومن المؤسف أن تقلّد بعض الأنظمة التي وقفت في صف صدام ـ على تفاوت فيما بينها ـ ما فعله صدّام مع العاملين المصريين ، ولا أدري هل إهانة المصريّين هي الحل الوحيد لمشكلات هذه الأنظمة؟ بالتأكيد فإن إهانة المصريين لا تحل مشكلةً لأحد ، وإن كانت ترسب في الأعماق آثارًا لا تمحى ، وتورث ضغائن لا تزول ! وبخاصة أن المصريّين في بلادهم لا يهينون شقيقًا أو ضيفًا ، وتحتم عليهم أخلاقهم أن تجعل للشقيق أو الضيف الأسبقية والأفضلية عليهم أنفسهم .

وإذا كانت طبيعة الأمور تنبيء أن استمرار الحال من المحال ، فإن الجاهلية البعثية في يوم ما ستختفي وتزول ، وستبقى الدروس التي تخلفت عن جريمتها في الكويت موضع دراسة .. وأعتقد أن من أهم هذه الدروس موقفها من مصر وشعبها ، فبدلاً من حفظ الجميل والاعتراف بالمروءة ، كانت الخسّة والدناءة ، وبدلاً من التعقل والحكمة كان التهور والاستخفاف ، وعلى كل حال ، فهو الموقف ذاته وقفته الجاهلية البعثية من الكويت ودول الخليج التي ساعدتها بقرابة مائة مليار من الدولارات وأشياء أخرى .. وفي يوم ما ، لابد أن تنتصر الأخلاق العالية والقيم الرفيعة ، ويعود الإسلام الظافر ليقضي على الجاهلية البعثية ، وكل جاهلية .

***

الحروف الملوثة

﴿إنّ المنافقين في الدَّرْك الأَسْفَلِ من النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لهُمْ نَصِيرا﴾

[سورة النساء: ١٤٥]

لقد صار واضحًا لكل ذي عينين أن فخامة الرئيس المهيب الركن «صدام حسين» التكريتي قد نجح بجدارة في استقطاب وشراء الأقلام اليسارية واللّادينية في عالمنا العربي ، لدرجة أن هذه الأقلام قد فرضت على الرأى العام حالة من التوتّر والاضطراب إزاء الجيش العراقي والأمن العربي والكويت المستباحة ..

فهناك الآن من يردّد : كيف تسعون إلى دق طبول الحرب وتدمير الجيش العراقي الذي بنيتموه بأموالكم وخبراتكم ، وهو ـ كما يزعمون ـ صمام الأمن للمنطقة ضد إيران وإسرائيل؟ وهناك الآن من يردّد : كيف تأمنون على أنفسكم والجيوش الأجنبية رابضة في الخليج ، وتستطيع في أي وقت أن تفعل ما تشاء وتفرض ما تشاء دون أن تجد من يردعها أو يخيفها ؟! وهناك الآن من يردّد : لماذا تصرّون على تحرير الكويت وإعادة الحكومة الشرعية بينما «الحل الوسط» يمكن أن يقنع الجميع ويوفّر الدماء والأموال والسلاح ؟!

ولأن هذا الذي يتردّد قد أصبح عالي الصوت جهير

النغمة ، فقد فرض على الضحايا أن يكونوا في موضع الدفاع من منطلق أنهم «ظالمون» لا «مظلومون» . وفرض على العالم أن يعيد حديثه ويشرح موقفه ، بل يؤكده من منطلق ردّ الشبهات . وإسماع الآخرين أن السعي إلى الحل السلمي هو الغاية والهدف ، وأن «الكيّ» سيكون آخر الدواء !

ويلاحظ أن مصر قد حظيت بالجانب الأكبر من الاتهامات الظالمة التي تضعها في صورة المحرّضة على الحرب ، أو التي لا تكفّ عن دقّ طبولها ، فضلاً عن الاتهام الرخيص من جانب الرئيس العراقي بأنها تعمل نظير أجر ، وتحارب لقاء ثمن ، وتتحرك بموجب «فاتورة» !!

وواضح أن الأقلام التي تعمل لحساب العراق قد استغلّت الساحة المفتوحة للتعبير الحرّ في مصر وغيرها لتروّج لأفكارها الإجرامية التي تهدف في النهاية إلى طمس القضية الأساسيّة وهي احتلال الكويت وتدميرها وتشريد شعبها ونزع هويتها ، وطرح قضية أخرى أو قضايا جديدة لا علاقة لها بالسلوك الإجرامي للرئيس العراقي وجنوده في الكويت ، بل في العراق نفسها .

وأتصوّر ـ بل أعتقد ـ أن القضية الأساسية ، وهي «اغتيال الكويت» من قِبَل «الجاهلية البعثية» ، لن تطمس ولن تَمُوت طالما بقى «كويتي واحد» على قيد الحياة .. هذه واحدة .

أيضًا؛ فإن المجتمع الدولي وفق الموازين الدولية الجديدة التي طرأت بعد إنهاء الحرب الباردة والوفاق بين القوى العظمى ، والاتجاه إلى البناء الاقتصادي والحضاري ، ونبذ الحروب العالمية ورفض التهديد بأسلحة الدمار الشامل أو تخزينها ، يعني أن هذا المجتمع سيصرّ على تنفيذ إرادته المتمثلة في تطبيق قرارات مجلس الأمن الدولي والتي تدور حول إخراج العراق من الكويت وإعادة الحكومة الشرعية ، وإرغامه على دفع التعويضات اللازمة للحكومة الكويتية نظير ما نهبه وما سلبه وما دمّره .

كذلك؛ فإن الدول الخليجية ، ومعها مصر وسورية ودول عربية أخرى ، لا تقبل بالتهديد العراقي المستمر لحدودها أو كياناتها من جانب العراق أو غيره من دول المنطقة أو خارجها .. ومن ثمّ ، فإن الدول الخليجية لابد أن تبحث

عن الأمان الذي يبعد عنها القلق ، ويجعلها تواصل مسيرتها في البناء والتعمير دون إزعاج أو قلاقل من جانب صدام أو غيره ؛ لأنها إذا قبلت بالاحتلال العراقي للكويت ، فمعنى ذلك أنها تقبل بالاحتلال نفسه لأراضيها مستقبلاً وهو ما لن يكون ..

وعندما تأتي الأقلام المأجورة لتطمس القضية الأساس وتصرف الأنظار عنها ، فإن محاولتها ستمنى بالاخفاق الذريع حتى لو حققت نجاحًا وقتيًا بإرغام الضحايا «المظلومين» على الدفاع عن أنفسهم كي لا يظهروا بمظهر «الظالمين» !!

واتهام مصر بأنها تدق طبول الحرب نظير أجر وثمن وفاتورة ، يبدو للعقل السليم اتهامًا رخيصًا ـ كما سبق القول ـ وتافهًا .. **فأية دولة في العالم تقبل أن تهرق قطرة واحدة من دماء أبنائها لقاء كنوز الأرض ما لم يكن من وراء ذلك عقيدة أو غاية؟ وأية دولة متحضرة في العالم ترضى أن يقال عن جيشها أو عن حكومتها إنها صارت ترتزق بالحرب ، أو تحارب نظير ثمن ؟**

إن مصر حين تقف إلى جانب شقيقتها أو شقيقاتها المهدّدات بالاجتياح والاغتيال ، فإنما تفعل ذلك عن مبدأ وعن عقيدة ،

وليس طلبًا لثمن أو قبضًا لفاتورة ، كما يقول الفكر اليساري المتعهّر ! **فقد كان يمكن لمصر أن تفعل كما يفعل البعض ، وتمسك العصا من الوسط ، أو تكتفي ببعض البيانات الإنشائية ، ثم تبحث عن وسائل أخرى لتقاضي الفاتورة أو طلب الثمن ، كما يزعم متعهرو اليسار وخونة الأمة وَكَذَبَةِ العرب !**

لقد اضطُر من تُوَجه إليهم الاتهامات بدق طبول الحرب ، إلى الاعلان في أكثر من مناسبة أنهم يسعون إلى الحلّ السلمي ، وأنهم لا يحبون الحرب ، وأنهم مع أي حلّ يجنّب المنطقة الويلات والدمار ، ولكن الأقلام المتعهّرة تصرّ على مقولاتها الكاذبة ، دون أن تتفضل بكلمة واحدة إلى فخامة الرئيس الركن المهيب صدام حسين التكريتي لتحثّه على الانسحاب من الكويت وتجنب العرب والمسلمين كارثة لا قبل لأحد بها .. **إننا نسألهم كم كلمة كتبتموها لبطل «القادسية» الجديد كي يرحل عن الكويت ويتركها لأهلها وشعبها؟ كم سطرًا كتبتموه ليكفّ جنوده عن قتل الكويتيين وتشريدهم ونهب ممتلكاتهم؟ كم موضوعًا كتبتموه ليعطي شعب العراق حقه في الاعتقاد والتعبير والسفر والعودة والمشاركة في الحكم وكافة حقوق الإنسان؟** إننا ـ على كل حال ـ بإزاء ظاهرة من أسوأ

الظواهر التي عرفها العرب في تاريخهم ، وهي استئجار الأقلام والألسنة من أجل ممارسة الكذب والدعارة الفكرية ، والضرب عرض الحائط بكل القيم الإنسانية والأخلاق الرفيعة والمثل العليا ، وحقوق الإنسان. وأتصوّر أن التاريخ سيقف عند هذه الظاهرة طويلاً ليسجل في صفحاته السود العديد من أسماء هؤلاء المرتزقة الذين وقفوا ضد الحق والعدل والمنطق نظير «فاتورة» حقيقية يدفعها الشعب العراقي «المظلوم» من دمه وماله ومستقبله.

لقد بنى العرب الجيش العراقي بأموالهم وخبراتهم ـ وهذا حق لا ريب فيه ـ ولكن من قال إنّ من ربّى ثعبانًا يجب أن يُبْقي عليه حتى يلدغه ويقتله؟ وهل نُبقي على الجيش العراقي ونقتل الكويت وندمّرها؟ وهل التأصيل للمشكلة يكون بطرح مسألة تدمير الجيش العراقي وإسدال الستار على مشكلة الاحتلال؟ إن المسألة بهذه الصورة تبدو في شكلها الحقيقي وهو الكذب المفضوح والتدليس الواضح لحساب المجرم والجريمة وهذا من أبشع أنواع الظلم على كل حال ..

إن المرء يستطيع أن يقرر بهدوء واقتناع كاملين أن تدمير جيش أهون ألف مرّة من تدمير وطنٍ وتشريد شعبٍ وسحق إنسان ..

ثم لماذا نلحّ على عملية تدمير الجيش العراقي ، ولا نلجأ إلى الحل البسيط والسهل والسلمي والذي لا يكلّف قطرة دم واحدة ، وهو انسحاب الجيش العراقي من الكويت وتركها لأهلها ؟ وفيما يبدو ، فإن الإصرار على الكذب والتدليس مقصودٌ لاغتيال الكويت ، وليس لهدف آخر .. أما ما يقال عن أن الجيش العراقي صمام الأمن ضد إيران وإسرائيل ، فهو قول تنفيه الأحداث والوقائع والتاريخ ، فمنذ إنشاء هذا الجيش وحتى الآن ، لم تتحقق على يديه حالة الأمان المرجوّة أبدًا ، فقد انتكس أمام إيران لولا الدعم العربي ، ولم يواجه إسرائيل أبدًا بالرغم من أنها دمرت المفاعل النووي العراقي علنًا وعلى رءوس الأشهاد !

إن استخدام فِرْيَة تدمير «الجيش العراقي» للتسليم باحتلال العراق للكويت غير مقبولة . وينبغي ألا تجوز أو تمرّ على أصحاب العقول السليمة بالقبول والرضا ، مهما تصايح أصحاب الأقلام غير المتوضئة .. والأصوات غير النقية .

ثم إن الإلحاح الحاد على مسألة القوات الأجنبية في الخليج ، دون النظر إلى طبيعة الجريمة البعثية يشكل حلقة من حلقات الكذب والتدليس أيضًا ، تكتبها الأقلام المأجورة

وترددها الأصوات المبحوحة ، ونحن نعيد ونكرر سؤالنا: من الذي يحمي الخليج من صدام إذا لم توجد هذه القوات في مثل تلك الظروف؟ ثم من الذي يستطيع أن يردع الجاهلية البعثية لتترك «الفريسة» وتعود إلى عرينها حتى يتم استئناسها ونزع أظفارها وإشاعة الأمن في أرجاء الشرق العربي ؟

لقد أكدت الأطراف المعنية بمسألة القوات الأجنبية ، وفي أكثر من مناسبة ، أن هذه القوات سترحل فور الانتهاء من مهمتها وتحقيق أهدافها ، قال ذلك الأمريكيون وأهل الخليج جميعًا ، ويعلم أصحاب الأقلام المسمومة والأصوات المشروخة أن القوات الأجنبية ليست في حاجة إلى احتلال المنطقة لسبب بسيط ، وهو فداحة تكاليف هذا الاحتلال ماديًا ومعنويًا ، داخليًا وخارجيًا ، ويكفي أن نذكر أن العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي هذا العام يحتم على الولايات المتحدة أن تخفض من نفقاتها العسكرية حتى يعتدل الميزان ..

والمفارقة المثيرة للدهش ، أن هذه الأصوات وتلك الأقلام أقرت بوجود القوات الأجنبية في الخليج في أثناء الحرب الإيرانية العراقية ، ولم تطلب يومًا من هذه القوات أن ترحل ، بل كانت تتصدى لكل صوت أو قلم يطالب

بترحيلها وتوجه إليه سهام الاتهامات حتى يكف عن مطالبته .. ألا يعطينا ذلك دلالة قوية على تلوّث ما يقوله المأجورون وعدم طهارته ، إذ السؤال الذي يطرح نفسه يقول : **أحلال للعراق أن يستعين بالقوات الأجنبية حرام على الخليج ؟**

إن القوم في غمرة نفاقهم الرخيص يتناسون الخطر الموجود على أرض الواقع وهو احتلال الكويت ، ويتذاكرون الخطر المتوهم وهو بقاء القوات الأجنبية لاحتلال الخليج .. **فهل من الإنصاف أو العدل أن نحارب الخطر «المتوهم» ونترك الخطر «المتيقّن» ؟**

لماذا يا قوم لا تقولون لصاحبكم: ارحل من الكويت ، واجعل أهل الخليج يشعرون بالأمن وبعدها نتعاون جميعًا لإخراج الأجانب بكل الوسائل على فرض أنهم سيرفضون الخروج ؟

أعتقد أن القوم ضالعون في «المؤامرة» الكبرى على الخليج كله ، وليس على الكويت وحدها ، **لأن ما فعله صدام يمثل استراتيجية بعثية واضحة ، تناغي وترًا حساسًا لدى أصحاب الأقلام اليسارية واللادينية أو القومية** .. وهذه الاستراتيجية تعني التآمر على الأمة وعقيدتها ، وقد بدأت في الخليج وتنتظر

أن تكمل مسيرتها الإجرامية في بقية أنحاء العالم .. وما ذلك الدفاع الآثم عن الجريمة ضد الكويت من جانب الأقلام الملوثة والأصوات المنكرة إلّا حصاد إعداد طويل ثم على مدى سنوات بعيدة بهدف تحقيق الاستراتيجية التدميرية الشريرة للجاهلية البعثية .

ثم إن القوم بطريقة ساذجة يحاولون إقناعنا بقبول ما يسمى بالحل الوسط. كي لا يُدمَّر الجيش العراقي ويفسد صمام الأمن العربي للخليج .. **ولا أدري تمامًا ما المقصود بالحل الوسط؟ هل هو الحل الذي يدعو إلى تحويل الكويت إلى محمية عراقية تتمتع بالحكم الذاتي على غرار إمارة مونت كارلو الفرنسية؟ أم إن هذا الحلّ يعني تقسيم الكويت ومنح نصفها لصدام؟ أم إن المسألة «الوسيطة» هذه تنصرف إلى الانسحاب المتزامن للعراق والقوّات الأجنبية من الكويت والخليج؟ أم إن القوم يقصدون انسحاب صدام من الكويت في وقت واحد مع انسحاب اليهود من الضفة والقطاع والقدس العتيقة ؟**

الحق أني لا أعرف ماذا يقصدون تمامًا ، ولكن إذا كانت هذه هي أوجه الحل الوسط المزعوم فهي مرفوضة لأسباب كثيرة من أهمها استحالة تنفيذها أو إنها تعني مكافأة المعتدي .

إن جهابذة اليسار والقومية لم يدلّونا على طبيعة الحل الوسط الذي يوفّر الدماء والأعراض والأموال والسلاح ، ولم يقدموا ملامح الحل الوسط حتى يستطيع الناس مناقشته ثم رفضه أو قبوله ، ولكنهم ـ كعادتهم ـ يقذفون بالونات الاختبار والتمويه والتضليل حتى يدعموا المجرم ، ويحوّلوا اهتمام الناس عن الجريمة إلى قضايا فرعية أو هامشية أو جدلية .. **وتلك آية المكر اللاديني المنحرف الذي يسعى إلى كسب الوقت وتثبيت مواقعه .. بل آية الفجور القومي الذي جعل من زعماء البعث آلهة توحي إليه وتقوده إلى بحر الظلمات !**

ولا ريب أن **«الجاهلية البعثية»** لابد أن تدفع الثمن ذات يوم ؛ إن لم تستجب لمنطق الحق والعدل والتاريخ .. إن المجتمع الدولي في هذه الآونة حريص على أن تسود الأخلاق الفاضلة في علاقات الشعوب والحكومات ، ولأن **«الجاهلية البعثية»** قد خرجت على هذه الأخلاق ، فإن إرغامها على احترامها أصبح ضرورة ولو بالقوة .. وأعتقد أن مجلس الأمن عندما يقرر استخدام القوة لتحرير الكويت ، فإنه يكون متسقًا مع نفسه ومع المواضعات الجديدةالتي فرضتها حالة الوفاق وإنهاءالحرب الباردة .. وفي هذه الحال ، فعلى **«الجاهلية البعثية»** مراجعة

نفسها ، والتخلي عن استراتيجيتها التدميرية ، وإلا فالويل لها ، والدمار أيضًا .

إن «صدام» يركب رأسه ، ويصم أذنيه عن كل نداء مخلص لسحب قواته من الكويت ، والتخلي عن استخدام القوة مع أهل الخليج وقد عبّر عن ذلك عمليًا باستدعاء المزيد من الاحتياطي وتجنيد أعداد كبيرة من العراقيين ، وحشد ألوف الدبابات على الحدود الكويتية وداخلها ، والتهديد باستخدام الأسلحة الكيماوية وإشعال آبار البترول وشواطىء الكويت ، وقتل الرهائن وضرب المدنيّين في كل مكان .. وهذا السلوك يعبّر عن حماقة بعثية لا مثيل لها في العالم ، لأنها تؤدي بأصحابها إلى هاوية سحيقة تجرّ معها شعبًا بريئًا وأمة مظلومة ..

إن ما ينبغي أن تتذكره «الجاهلية البعثية» أن الغطرسة والحماقة والاحتماء بالرهائن والمدرعات لن يجعلها تفلت من العقاب ودفع الثمن غاليًا ، حتى لو استعانت بالأقلام المأجورة ، والأصوات المشروخة ، وشهود الزور ..

***

الغد المنتظر

حكمة القدر

﴿إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾

[سورة النحل: ٩٠]

اليوم أو غدًا ، ستنتهي بإذن الله مأساة الخليج الدامية التي صنعها الجاهليون البعثيون باحتلال الكويت ، وتهديد دول أخرى ، تساعدهم في ذلك ترسانة هائلة من السلاح التقليدي والكيماوي ، وفكر انتهازي رخيص يؤمن بالغاية التي تبرّر الوسيلة ؛ ولا يتورع عن إزهاق الأرواح والتحدث بلغة الدم مع الأهل والأشقاء !

ستنتهي المأساة الدامية بإذنه تعالى ، مع سقوط كثير من المسلمات والمواصفات ، وسترتفع من جديد راية جديدة ووحيدة في المنطقة طال تغييبها بعد إسقاطها واحتقارها والزراية بها والتشهير بمن يحملونها لحساب قوى الشرّ والبغي والطغيان .. إنها راية الإسلام بتصوراته الظافرة ، وعطائه المغدق ، وإعجازه الفريد ..

سوف يذهب «صدام حسين» التكريتي ـ بحول الله ـ وتختفي معه الجاهلية البعثية ، وتداوي الأمة جراحها وآلامها ، وتنهض الشعوب من كبوتها وانكسارها ، وتستعيد مرة أخرى قدرتها على السير والانطلاق والمشاركة في البناء الحضاري

لذاتها وللإنسانية جميعًا ، وتحمل الهدى والنور للبشرية جمعاء – بتوفيقه تعالى – .

وأعتقد أنه آن الأوان لنفكر بالعقل والحكمة في كيفية البناء المأمول وأداء الدور المنتظر ، فلم يعد مقبولاً أن نتصالح مع الأفكار الدنيوية الشريرة التي قننّت الاستبداد والاستلاب وتحويل الأمة إلى مجرد قطيع يهتف للطغاة وينفذ مشيئتهم ويخضع لمزاجهم .. ولم يعد مقبولاً أن تكون الحرية والحركة والغنيمة حكرًا لتلك الوجوه أو الأحزاب التي لعبت بمصائر الأمة على مدى نصف قرن من الزمان فغامرت بالأرض والعرض ، وأضاعت الثروة والهوّية ، وحاربت الدين والعقيدة ، وأتاحت لأشرار العالم وشذاذ الآفاق فرصة النفاذ إلى بلادنا وشعوبنا ، والاستقرار في أوطاننا وعقولنا ، وحوّلتنا إلى مجرّد بيادق على قطعة شطرنج ، أو عبيد يلهثون وراء أسيادهم في ذلةٍ وإنكسار لم تعرفهما الأمة الإسلامية في أشدّ العصور انحطاطًا وهوانًا .

إن عصر البزّات العسكرية لابد أن ينتهي ، وزمن اللصوص الذين سرقوا الإسلام والعدل والحرية والشورى لابد أن يرحل ، وعهد القومية الفاجرة والأيديولوجيات

الوافدة لابد أن يوارى التراب ، فقد تعبت الأمّة وشقيت وذاقت الويل ، وصارت «قصعة الأمم» و«معرّة الدول» !

وأعتقد أن دور الأمة على مستوى المثقفين والقواعد لابد أن يبدأ ، وأن يفرض ذاته وأن يقول للطغاة والجاهليّين الجدد: لقد انتهى زمانكم ، فلملموا أوراقكم وعودوا إلى أحضان التاريخ الذي لن يرحمكم ولن يتسامح معكم بحق ما اقترفتموه ضد شعوبكم وأشقائكم والإنسانية ..

وإذا كان البعض لا يتّعظ مما خطه التاريخ سلفًا ، فإن الحاضر يجب أن يكون له واعظًا ، وبخاصة إذا نظر إلى أوربة الشرقية ، وعلى رأسها «الاتحاد السوفياتي» ، فقد أثبت الحاضر أن مصير الطغيان والاستبداد والقهر هو السقوط في «مزبلة» التاريخ ، وأن الحرية والشورى والعدل لابد أن تنتصر – عادة – بعد طول عناء ، لأن من سنة الله في الكون أن ينتصر الحق على الباطل :

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا * وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾

[الاسراء: ٨١ – ٨٢] .

ثم إن الغرور قد يزيّن لبعض الظّلمة والفجّار أن الدنيا ستظل تضحك لهم وتزغرد لأيامهم ، ولكنهم ينسون أن الفصل الختامي – دائمًا – بشعٌ ورهيبٌ وشنيعٌ وقاسٍ :

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٢]

إن نظرة إلى الذين سبقونا في مضمار الحياة ، تؤكد ضرورة مراجعة النفس بالعقل والحكمة ، فنحن محتاجون – بوصفنا أمة إسلامية نعتها الله بالخيرية – إلى تحقيق الأمن والانطلاق إلى آفاق التحضّر والبناء .. وتحقيق الأمن والانطلاق يحتاج – من وجهة نظري – إلى أسس تتم على مستوى الأوطان والأمة والإنسانية جميعًا ، ويمكن أن نشير إلى هذه الأسس ، التي ينبغي أن تتم في إطار التفاهم والإخلاص والعزم ، في إيجاز شديد من خلال النقاط التالية :

أولاً على مستوى الوطن:

لا شك أن قيمة الحرية التي رسخها الإسلام تظل محور الحياة والحركة ، فقد حرّر الإسلام الإنسان المسلم من

العبودية إلا لله وحده ، ولعل السرّ يكمن في تحويل الإنسان المسلم إلى طاقة فعّالة ومبتكرة ، سواء في الجهاد أو العمل أو الإنتاج ، فضلاً عن العبادة والإخلاص للخالق سبحانه .. وقد ثبت من التاريخ والواقع أن سلب الإنسان – أيًّا كان – حريته هو عملٌ إجرامي بشع ، لأنه يحوّل الفرد إلى آلة حيوانية لا يعنيها أمر الوطن أو مستقبله أو كرامته .. جرى هذا في أوربة الشرقية ، وجرى في غيرها مما كانت نتيجته على المستوى الحضاري والخلقي معروفة للجميع .. ومن ثمّ فإن إرساء قواعد الحرية داخل الوطن يضمن للجميع حكامًا ومحكومين علاقةً متحضّرة وراقيةً ، إذْ يصير الجميع على مستوى واحد من الكرامة الإنسانية والاحترام المتبادل ، وأعتقد أن الدول الغربية قد تقدمت وحققت إنجازاتها الباهرة حين أقرت هذه العلاقة ودعمتها بإتاحة التنافس السلمي بين المواطنين للتعبير والمشاركة ، فتحقّق الأمن الداخلي كأفضل ما يكون ، وصار المجتمع كتلةً واحدة بالرغم من اختلافات الرأي ووجهات النظر المتعددة ، وصارت المصالح العليا والاستراتيجية هي ديدن المواطنين جميعًا .

ولعل هنالك حكمة إلهية أن يجري في الفترة الأخيرة تعديل في الحكم في بريطانيا بطريقة ديمقراطية ، رائعة بينما

فخامة الرئيس «صدام حسين» التكريتي ينفرد وحده بتقرير مصير الأمة العربية جمعاء (!) وليس مصير الشعب العراقي فقط .. وأحسب أن السيدة «مارجريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة قد قدمت درسًا عمليًّا وتطبيقيًّا على العلاقة الكريمة التي تربط بين الشعب وحكامه ، حين وجدت أن من مصلحة وطنها أن تستقيل وهي في أوج قوتها ، وذروة انتصاراتها ، وبهجة تفوقها ، لتتيح الفرصة لمن يخلفها كي يحقق المزيد من التفوق والانتصارات والقوة لبريطانيا وشعبها .

أين هذا ممّن شرّد شعبه في المنافي ، وأطبق فمه ، وأدخله الأقبية المظلمة ، وجعله يتبعه بلا رأي ولا إرادة ، أو شرّد شعبًا شقيقًا ، وأزرى بأمة وأهان العالم ؟

إن الحرية هي مفتاح شخصية المسلم ، وهي سرّ نبوغه وتفوقه ، وستظل كذلك إلى يوم الدين ، لأن المسلم مقيّد بقيدٍ واحد فقط هو العبودية لله والالتزام بشريعته ، ومن العار على أمة علمت البشرية كيف تكون الحرّية؛ أن يعيش أبناؤها في قبضة القيود التي صنعها الطغاة والمتآمرون واللصوص .. لقد صار واضحًا لكل ذي عينين أن العبيد لا يصنعون مجدًا ولا حضارة ولا يصون حاكمًا ولا زعيمًا، لأن فاقد الحرية

لا يملك دوافع المجد ولا الحضارة ولا يستطيع أن يفي لنفسه فضلاً عن الآخرين .

ثم إن أول معالم الحرية حق التديّن والعبادة ، ومن المؤسف أن يُحاصر الإسلام في بعض بلاد الإسلام ، ويُطارد المسلمون في بعض بلاد الإسلام .. ومن المفارقات العجيبة أن يسمح بإقامة حزب إسلامي في دولة نصرانية مثل بريطانيا ، ولا يسمح بإقامة حزب مثله في بعض بلاد المسلمين التي تجيز للشيوعيين والدنيويين والقوميّين إقامة أحزابهم التي تتيح لهم التعبير عن أفكارهم المعادية للإسلام بوساطة صحفٍ ودورياتٍ وندواتٍ ومؤتمراتٍ وأجهزة إعلام أخرى ؟

كذلك فإن من معالم الحرية كما وضّحها الإسلام حماية حقوق الإنسان في بلاد المسلمين ، وبدون الحرص على هذه الحقوق يتحول المسلم إلى كتلة دموية «مُسْتَعْبَدة» يفعل بها الظالمون ما يشاءون ، وإني أدعو الله سبحانه أن يختفي من تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية ، ما يتعلق ببعض بلاد المسلمين ، والذي صارت فيه دول إسلامية ضيفًا مستديمًا يرمز إلى انتهاك الحرمات والكرامات فضلاً عن البغي المستمرّ والإجرام المرعب !!

إن المحافظة على حقوق الإنسان في إطار الحرية ومقتضياتها من الشورى والعدل ، تفتح الطريق تلقائيًا أمام بناء القوة الذاتية للأوطان ، وإطلاق سراح المَلَكات للتفكير والابتكار ، وإيذان بعصر جديد من النور والأمل ، يعمّ خيره الجميع ، ويحقق خيريّة المسلمين بين بقية خلق الله .

ثانياً: على مستوى الأمّة:

لا يمكن بحال أن تتحقق أهداف الأمة من خلال الغارات التي يشنّها شقيق ضد شقيقه ، حتى لو تدثرت هذه الغارات بدعاوي الوحدة والحقّ التاريخي والمشاركة في الثروة .. إلخ فهذه دعاوي غير مقبولة ، وغير عملية ، حتى لو بدا بعضها ـ مثل دعوى الوحدة ـ هدفًا مشتركًا لا يختلف عليه اثنان ، فكيفية تنفيذه تقف عقبة كأداء أمام تحقيقه وما لم يتم التمهيد له ، والوصول إليه بطريقة سليمة عمادها الاقتناع الذاتي والإيمان اليقيني فلن يتحقق أبدًا .

إن أعداء الأمة كثيرون ، ومشكلاتها كثيرة ، ولا يمكن مواجهة الأعداء أو حل المشكلات إلا بالتعاون والتعاضد دون أن يتحمل طرف من الأطراف أكبر من طاقته ، أو فوق

ما يحتمل الآخرون ، ولنا في منهج الإسلام العظيم ما يقودنا إلى أهدافنا بلا عناء ولا متاعب ، ولا شقاق ولا خلاف :

﴿ ... ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران: ١٠١]

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

وينبغي أن نقرأ التاريخ ونستقرىء الواقع إذا أردنا حقًّا أن نعيش المستقبل ونأخذ مكانتنا في صفوف العالمين تحت قرص الشمس .. وأعتقد أن تجارب الوحدة السابقة ، والتي منيت بإخفاق ذريع يجب أن تكون في وعينا عند الحديث عن أية وحدة ، كذلك فإن ما قام به «صدام» في الكويت وزعم أنه وحدة يجب أن يكون ماثلاً في أذهاننا ، مقارنًا بما يحدث في دول المجموعة الأوربية التي تتنافر لغويًّا وعرقيًّا ومذهبيًّا ، ومع ذلك تخطو خطوات حثيثة وواثقة نحو وحدة حقيقية وفاعلة ، ويلمس أثرها المواطن الأوربي البسيط في حياته اليومية والسلوكية ، دون أن يسمع أغنية واحدة

تتحدث عن الوحدة من قبيل : **«وحدة ما يغلبها غلاب»** ولا **«الوطن الأكبر»** ولا **«بساط الريح»** .. !

إن مصالح الأمة الاستراتيجية تحتّم الوحدة والتعاون بين شعوبنا العربية والإسلامية ، والاهتمام بهذه المصالح ينبغي أن ينطلق من أرضية واقعية وبخطوات محسوبة تكون إضافة لرصيد قوتنا وخصمًا من حساب ضعفنا .. **ولذا يجب من وجهة نظري أن تسند هذه المسألة إلى المتخصصين الفنيّين بدلاً من السياسيّين والأيديولوجيّين لأنها ستكون بالنسبة للفريق الأول علم ودراسة ونتائج ومع الفريق الثاني إنشاء ومجاملات ودعاية .**

وأتصور أن يكون من المفيد أن نتذكر أن بناء الخلافة الإسلامية في مختلف عصوره ، كان أقرب إلى الوحدة الفيدرالية (يشبه إلى حدّ ما نظام الولايات الأمريكية المتحدة) أي حكومة مركزية تعني بالشئون الخارجية والدفاع القومي ، مع حكومات محلية تعبّر عن الواقع المحليّ وظروفه الخاصة التي تختلف من منطقة إلى أخرى .. ولعل الأحداث الدامية التي صنعها الرئيس العراقي باحتلال الكويت ، جعلت قضيّة الدفاع والسياسة الخارجية في إطار قومي أمرًا واقعًا ، ليس هذا

فحسب ، بل إن المسألة صارت أمرًا واقعًا في إطار عالمي **ومن ثمَّ فإن الحديث عن تصوّر مشترك للسياسة الخارجية والدفاع القومي يعدّ ضرورة للمحافظة على كيان الأمة ككل . ومواجهة العالم بمنطق موحّد ولغة واحدة ..**

وإذا كانت الجامعة العربية قد قصّرت في أداء مهمتها المنوطة بها لأسباب شتى ، فإن الواقع يفرض مراجعة دورها ، وبحث طبيعة نظامها ، وإعادة صياغتها بما يتلافى القصور الراهن ، ويجعلها مثمرة ، حتى لو اقتصر هذا الإثمار على جانب واحد فقط .. المهم أن تكون لها فائدة ما ..

كذلك فإن بناء القوة الذاتية للأمة يستدعي أن تتغير النظرة الإقليمية الضيقة في إعداد الجيوش وتسليحها ، مع النظر عبر الحدود إلى القوة المتنامية لليهود في بناء جيشهم بناءً غير تقليدي يعتمد على الأسلحة النووية والكيماوية ، ويسعى إلى تحقيق حلم شرير بإقامة دولة كبرى من البحر إلى النهر (أي نهر؟ لم يقولوا ..) ، وقد أعلن عن الحلم الشرير والأسلحة النووية أكبر رأسين هناك : الإرهابي «إسحق شامير» والإرهابي «حاييم هيرتزوج» .

إن بناء صناعات حربية متطوّرة أمر حتمي لتحقيق الأمن العربي والإسلامي ، وهذا البناء ممكن بحكم وجود الخبرة والتمويل ، **ولو أن هيئة التصنيع الحربي بالقاهرة سارت بمعدلها الذي بدأت به ، لكان لدينا اليوم اكتفاء ذاتي في كثير من أنواع السلاح التقليدي ، فضلاً عن الوصول إلى مراحل لا بأس بها في مجال السلاح المتطوّر الذي أضحى ضرورة ، ولكن البكاء على ما فات لا يجدي ، والمهم هو العمل مرة أخرى والاستمرار فيه ..**

إن السلاح المتطوّر ضرورة توجبها معادلة ما لدى أعداء الأمة من سلاح متطور يهدد وجودنا كله ، ويوم يقبل الأعداء بنزع هذا السلاح وإخلاء المنطقة منه والقبول بالضمانات التي تضمن لنا أمننا واستقرارنا وثرواتنا ، فلا بأس أن ننزع سلاحنا أيضًا ..

وفي كل الأحوال تبقى مشكلة الأمن العربي والإسلامي منوطة ببناء القوة الذاتية ، وصياغة الأوطان العربية والإسلامية على أسس الحرية والعدل والشورى واحترام حقوق الإنسان ، وأعتقد لو أن حكومتنا العربية والإسلامية ـ والشعوب أيضًا من خلال مثقفيها وقادة الفكر والرأي ـ نبذت كل نظام يهدر

حقوق الإنسان أو يلغي الحرية والعدل والشورى [illegible] نظام مثل النظام الجاهلي العراقي على تهديد الأمن العربي والإسلامي ، واحتلال دولة شقيقة مثل دولة الكويت ..

ثالثا: على مستوى العالم:

إن النظام العالمي الجديد ـ فيما أتصور ـ ليس أكذوبة كما يعتقد بعض الناس ، لسبب بسيط جدًا هو أن هذا النظام قد قام على المصلحة المتبادلة بين الدول الكبرى والغنيّة .. وقد وجدت هذه الدول أن من مصلحتها أن يمضي النظام العالمي وفقًا لقوانين الأمم المتحدة ، لأن ذلك أقل تكلفة من الحرب العالمية والحرب الباردة على السواء ! وينبغي أن يكون لنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ موقف يتسم بالوعي والإدراك لما يدور حولنا بما يحفظ لنا مصالحنا المشروعة، ويُبقي لنا بلادنا بعيدةً عن القلاقل والاضطرابات والمهانة ، ويضمن لنا تبادل المنفعة مع الغير بعيدًا عن الغبن والظلم ، ويهيىء لنا في كل الأحوال مشاركة فعّالة في الحضارة الإنسانية ، وإثرائها بالنموذج الإسلامي ، المتحضر والظافر .. وهو النموذج الذي غاب طويلاً منذ سقوط الدولة العباسية على يد التتار وهجمات «الهمج الهامج» من

الصليبيّين الغزاة ، والاستعماريين الطغاة وآن له أن يعود ..

إن استغلال المناخ الجديد الذي أفرزته جريمة احتلال الكويت من قِبَل الجيش العراقي ، كفيل بحلّ مشكلات عديدة في عالمنا العربي والإسلامي .. وإن كان الأمر في النهاية يتوقف على قوتنا الذاتية وإرادتنا الصلبة ، وعزيمتنا التي لا تعرف الخور أو التردّد ، لأن موازين القوى هي الفيصل في النهاية .

إن «صدام حسين» قد فتّح أعين العرب والمسلمين ، بالرغم منه ، على واقع تعس وبائس صنعه الإجرام والطغيان والاستبداد والأنانية والتفرق والتشرذم ، ولابد من معالجة هذا الواقع على أسس جديدة من الحق والصواب ، ووفقًا لمنهج الإسلام في احترام حقوق الإنسان وأول هذه الحقوق الحرية والكرامة والشورى والعدل والمشاركة .. وسيادةالمنهج الإسلامي كفيل بالشفاء من أمراض كثيرة تعانيها أمتنا وأول هذه الأمراض الضعف والخوف والقلق والفقر .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[النحل: ٩٠]

* * *

ختـــام

لعل القارىء رأى فيما مرّ من صفحات طبيعة المحنة التي أصابت كبد الأمة فقرّحتْها وأدمتْها ، وأشهدتِ العالم على البؤس الذي نعيشه والتعاسة التي نحياها بفضل أولئك النّفر من المنتسبين إلى العروبة والإسلام ، والذي تنكّبوا طريق الرشد ، وانزلقوا في طريق الندامة والغواية ، فصرنا «قصعة الأمم» و«معرّة الدول» !!

لقد برزتْ قضيّتان خطيرتان في خضمّ المحنة ، **أولاهما**: تتعلق **«بالقومية»** كرداء فضفاض اجتمعت بداخله القوى اللّادينية أو المعادية للدّين من بعثيّين وناصريّين وماركسيين ودنيويّين ، وقد آن لهذه القومية أن ترحل من واقعنا الفكري والعملي ، لأنها تسببت في إذلال الأمة وتمزيقها وتشتيت قواها ، وسرقت أغلى ما يحرص عليه العرب وهو الإسلام. بمعطياته العظيمة: **الحرية والشورى والعدل وحقوق الإنسان** .. والوقائع الشاهدة على ذلك أكثر من أن تحصى: ضياع

فلسطين والقدس والجولان وجنوب لبنان ، وسحق الكويت ، وإسالة الدم العربي والإسلامي في أكثر من مكان وأكثر من زمان ، وابتعاد حلم «الوحدة العربية» إلى درجة تقرب من الاستحالة ..

وثانيتهما: تتعلق «بفهم الإسلام» وتفسير الأحداث المستجدة على ضوئه وتشريعه ، وقد رأينا أن فريقًا من المنتمين إلى الحركة الإسلامية لم يكونوا على مستوى الفهم الصحيح والناضج للتشريع الإسلامي ومعطياته القيّمة ، فقد وقفوا إلى جانب الطاغية البعثي بطريق مباشر أو غير مباشر ، ونسوا أو تناسوا أن هنالك جريمة دامية تتعلق بوطن مستباح اسمه «الكويت» ، مما يعني أن مراجعة النفس صارت ضرورة من قبل هذا الفريق والحركة الإسلامية معًا .. حرصًا على الإسلام والمسلمين جميعًا.

ولعل «الدرس البعثي» في الكويت يوقظ الأمة الإسلامية **للعمل الجاد من أجل البناء والتعمير** ، واتخاذ الأسباب نحو **التماس وسائل القوة والعزّة للنهوض من العثرات ، بتحكيم الإسلام ، وتشريعاته ، ورفض ما يخالفه أو يناقضه ، لنكون بحق خير أمّة أُخرجت للناس** .

حلمي محمد القاعود

كتب للمؤلف

إسلاميات :

- **مسلمون لا نخجل** ، دار الاعتصام ، القاهرة (نفد) .
- **حراس العقيدة** ، دار البشير ، طنطا ، (طبعة ثانية) .
- **الحرب الصليبية العاشرة** ، دار الاعتصام ، القاهرة (نفد) .
- **العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة** ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- **الصلح الأسود .. رؤية إسلامية لمبادرة السادات والطريق إلى القدس** ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- **ثورة المساجد: حجارة من سجيل** ، دار الاعتصام ، القاهرة (نفد) .
- **هتلر الشرق وبلطجي العراق ، ولص بغداد** ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- **جاهليّة صدام .. وزلزال الخليج** ، دار المعراج ، الرياض .

أدب ونقـد :

- **الغروب المستحيل** – دراسة نقدية في أدب محمد عبد الحليم عبد الله ، القاهرة (نفد) .
- **رائحة الحبيب** ، مجموعة قصصية ، القاهرة (نفدت) .
- **الحب يأتي مصادفة** ، رواية عن حرب رمضان ، دار الهلال ، القاهرة ، (نفدت) .
- **مدرسة البيان في النثر الحديث** ، دار الاعتصام ، القاهرة ، القافلة ، الخفجي [السعودية] (نفد) .
- **موسم البحث عن هوية** دراسات في القصة والرواية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- **محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث** ، دار الوفـاء ، المنصورة.
- **القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث** ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- **الرّواية التاريخيّة في أدبنا الحديث** (دراسة تطبيقية) ، دار الاعتصام ، القاهرة .

إعـلام :

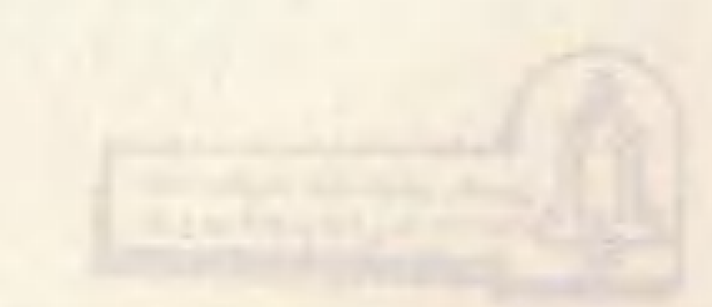
- **الصحافة المهاجرة** ، دار الاعتصام ، القاهرة (نفد) .

تحت الطبع ويصدر قريبًا إن شاء الله تعالى :

- ... واسلمي يا مصـر .
- حفنـة سـطور .
- خيـوط العنكبوت .

***

الفهـرس



الموضوع	الصفحة

***

هـذا الكتـاب

● « جاهلية صدام ... وزلزال الخليج » هو الكتاب الثاني للدكتور حلمي محمد القاعود ، في معالجة المحنة التي أصابت العرب والمسلمين باحتلال الكويت وتشريد شعبها ونهب ممتلكاتها على يد الجاهلية البعثية .. كان الكتاب الأول بعنوان : « هتلر الشرق وبلطجي العراق ولص بغداد » وفيه يسجل المؤلف موقفه الذي سبق وقوع المحنة بسنوات طويلة ، حيث كان أول من كشف عن جرائم الطاغية ضد العراقيين والمسلمين على السواء ، بالإضافة إلى تحليل الجريمة وأبعادها عقب حدوثها ..

● في كتابه الثاني يطرح الدكتور القاعود تصوره الشامل لأبعاد الجاهلية البعثية وخطورتها على الإسلام والمسلمين ، في الخليج وعلى امتداد العالم العربي ، كما يحلّل مواقف القوى والعناصر السياسية من الحدث ومعالجته .

● المؤلف في تحليله يُصدر عن مفهوم إسلامي ناضج ، يتميّز بالشجاعة الأدبية ، والوضوح الساطع ، أملاً في إبلاغ الأمة حقيقة ما جرى !!

